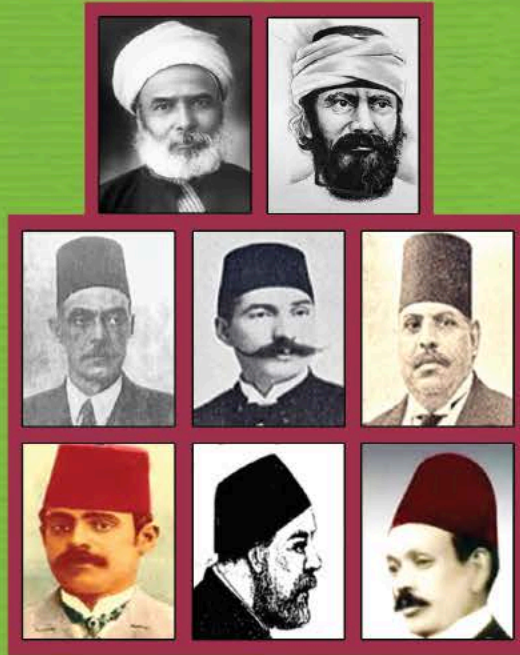




# سُلْطَةُ الْعُقَدِ الصَّوِّحِ





سُلْطَةُ الْعُقَايِطِ



الدكتور محمد راجوادي

# سُطْرُ الْعُقَدِ الْطَوِّجِ





الطبعة الأولى

2020 - 1442

ISBN 978-625-7682-10-7



إهداء

إلى أخي الكريم  
الدكتور سعد زغول العشماوي  
تحية لكل الذكريات





## هذا الكتاب

يصور هذا الكتاب البذور الفكرية الحقيقية التي نمت شجراتها في وطننا منذ الثلث الأخير للقرن التاسع عشر وظلت تنمو حتى عبرت عن نفسها بالحراك الفكري والاجتماعي قبيل الحرب العالمية الأولى ، و يرنو هذا الكتاب إلى رسم صورة تقريبية لملامح الحياة العقلية المصرية حين بدأت اتصالها بالحضارة الحديثة وحين أخذت إرهاصات هذا الاستقلال تتولد وتنضج من خلال التعليم والرحلة والتعامل والمضاهاة والتقليد، وحين مضى هذا الاتصال يثير في الأذهان الأسئلة المعرفية الستة العظيمة التي نتحدث عما ينقصنا من تعلم ، وعما يميزنا من هوية ، وعما يحمينا من قوة ، وعما ينتظرنا من مستقبل ، وعما يليق بنا من نهضة ، وعما يجب علينا من جهد .

كان السؤال الأول حاضراً مع كل تقدم غربي يعبر عن نفسه في الحياة وعلى أرض الواقع ، وكان السؤال الثاني حاضراً مع كل إجابة عن سؤال من الغرب عن هويتنا وعن أصلتنا وعن قابليتها للحلود رغم محاولاتهم الدائبة لتغييرها أو تذويبها ، وكان السؤال الثالث يعبر بتلقائية عن نفسه مع كل نجاح في إثبات الذات أو الوجود أو الصمود ، وكان السؤال الرابع يبرز إلى منصة التداول نفسه مع كل صدى لمشروع يفرض نفسه أو يعرض نفسه ومع كل تطور في السياسة الدولية، وكان السؤال الخامس يبلور فكرة الذات وهويتها عند التفكير في الخيارات المتاحة من التقليد المطلق أو المقيد أو الانتقائي أما السؤال السادس فقد كان يرسم التصورات الأولى عن بعض ملامح خطة العمل التي يجب التوافق حولها والالتزام بها.

لهذا كله ، فإن هذا الكتاب حريص على استجلاء الملامح الفكرية وعلى استقصاء تكوين البنية التعليمية التي تمتع بها ثمانية من أقطاب العقل الطموح في الفترة التي سبقت النهضة المصرية الحديثة مضيئاً المناطق المتعددة من الفهم والإحاطة التي كونت رؤاهم وصاغت أفكارهم وقادت خطواتهم إلى دعواتهم سواء كانت دعوات فطرية أو كانت دعوات متحققة على أرض الواقع في المجال الاقتصادي والاجتماعي والرياضي والفني.

يتلمس الكتاب طريقاً بعيداً عن ضجيج ما اشتهر، وبعيداً عن الخوف من الهجوم المستعر ضد أفكار لم تكن تستدعي الهجوم لكنها أصبحت بالترار لازمة من لوازم الحياة الفكرية والعقلية. و يحاول الكتاب الإنصاف كما يحاول الكشف، ويحاول التقييم كما يحاول العرض و يرجو أن يفلح في هذا وذاك .

نتناول إذا في هذا الكتاب وصفاً متنوعاً ومتعمقاً للتوجهات الفكرية والعقلية الطموحة في مصر فيما قبل الحرب العالمية الأولى و ثورة ١٩١٩ حين كانت مصر ترنو بشغف إلى ما وصلت إليه مقومات عصر النهضة في أوروبا وما يمكن أن يكون مساوياً أو مناظراً له في مصر، على الرغم من النكسة التي أصابت الحركة الوطنية بانتهاء ثورة عرابي مع دخول الاحتلال البريطاني إلى مصر في ١٨٨٢ .

اخترنا أن نتأمل في هذا الكتاب تجربة سبعة من ذوي الاتصال المباشر بالحياة الفكرية والعلمية والتربوية قدر خمسة منهم أن يرحلوا قبل اندلاع الثورة واكتمالها بينما بقي اثنان منهم على قيد الحياة وتوفيا عقب نجاح الثورة بسنوات قليلة ، لكنهم كانوا قد مهدوا لها بسلوكهم الفكري الذي مهد الأرض ببذور التوجهات الحضارية الجديدة وآليات النهضة والارتقاء ونعني بهؤلاء المفكرين:

- السيد جمال الدين الأفغاني
- الإمام محمد عبده
- أحمد حشمت باشا
- قاسم امين بك
- أحمد فتحي زغلول باشا
- عمر لطفي بك
- محمد عاطف بركات باشا

وقد ضمنا إلى هؤلاء السبعة مفكراً مصرياً من الجيل السابق عيهم اتصلت توجهاته وممارساته على أرض الواقع بإنجازات هؤلاء المفكرين وهو محمد قذري باشا.

ومما هو غني عن التعريف أن بعض الذين مهدوا بالفكر لثورة ١٩١٩ قد امتد بهم العمر حتى شهدوها ثم اضافوا إليها تطبيقا ذكيا مكنتهم الثورة به أن يتحولوا من مفكرين إلى منجزين ذوي طبيعة خاصة وفي مقدمة هؤلاء طلعت حرب باشا الذي امتد به العمر حتى أنجز ما أنجز، فأضاف إلى رصيده الفكري المتكون قبل ١٩١٩ والذي لا يقل عن الرصيد الفكري لهؤلاء لكنه امتاز عنهم بما رزقه الله به من العمر والتوفيق بما جعله يعيش ربع قرن بعدهم ويُنجز ما لم ينجزون ويرتبط بهؤلاء عدد قليل من الوزراء التنفيذيين الناصحين فيما قبل نوفمبر ١٩١٩ لوضع جذور نهضة ثقافية وتعليمية ذات أثر تنموي، وعلى رأس هؤلاء بالطبع سعد زغلول باشا ويشترك معه في هذا حسين رشدي وشوقي وصدقي وثروت ومحمد سعيد ممن لمعوا بعد ثورة ١٩١٩ وبفضلها ولهذا فقد تناولنا سيرتهم هم في كتبنا الأخرى المعنية بالسياسة والتاريخ السياسي.

أما أرباب الفكر من قبيل أحمد تيمور باشا أحمد زكي باشا فأولئك أرفع قدرا من هؤلاء جميعا وقد تناولنا أدوارهم في كتابنا عن الموسوعية.

يأتي هذا الكتاب اليوم ليكمل زوايا الرؤية التي استعرضنا بها الإسهامات المتميزة لرجال السياسة من خلال كتبنا عن سلطة النبوغ الخصيب، وسلطة الإنجاز الواثق و سلطة الحضارة المستنيرة فضلا عن كتبنا عن القضاء والرياسة في زمن السياسة ، وقبل مشرق النهضة ، و أعيان المصريين ، و الشركاء المتشاكسون ، و أسرى السلطة ، وأساتذة الأدب العربي المؤسسون .

و على صعيد آخر ، يأتي هذا الكتاب اليوم لينضم إلى مجموعات كتبنا السابقة عن أعلام تاريخنا ، وهي الكتب التي لقيت من التقدير و الإقبال فوق ما تستحق ، ومن حسن الحظ أننا مارسنا فيها على مدى أكثر من أربعين عاما من عملنا الجاد كل ما وقفنا إليه من التقييم المستوعب للأدوار العقلية على نطاق واسع فاستوعبنا به حركة الشخصيات التاريخية طيلة القرنين الماضيين على نحو ما يجده القارئ في كتبنا المتتالية في حقبة الزمنية المتداخلة وقد أوشكت موسوعاتنا عن هذه الحقبة المتتالية أن تستكمل أجزاءها بفضل الله وعونه.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفذ به ، وأدعوه جل جلاله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربها الطبيعية في ظل غربتي ومرضي و تشردي و استيحاشي ، والوقت لا يسعني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، و الألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، و السهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعع، والعمر قصير، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، و شرور العجز و الكسل و الوهن ، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدي برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي و حدسي و ذائقتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل ، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وإخلاص المؤمنين ، وعطاء المحسنين ، وشك الأطباء ، وتثبت العلماء ، وخيال المبدعين ، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د. محمد الجوادي

## الباب الأول : الأستاذان

### الفصل الأول السيد جمال الدين الأفغاني

#### العلامة الذي أيقظ الفكر الشرقي

نبدأ بالفقرة البليغة التي رثا بها الأستاذ الامام محمد عبد أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني ( ١٨٣٨ - ١٨٩٧ ) حيث قال : «والذي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس، و السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمدا، وإبراهيم، وموسي، وعيسي صلي الله عليهم وسلم، والأولياء والقديسين. ما رثيته بالشعر، لأنني لست بشاعر، ما رثيته بالنثر لأنني لست الآن بناثر، رثيته بالوجدان والشعور لأنني إنسان أشعر وأفكر».

#### تفكيرنا في تاريخنا، وتاريخنا لتفكيرنا

لا يمكنني البدء بالحديث عن السيد جمال الدين الأفغاني من دون مقدمة مهمة تتعلق بتفكيرنا في تاريخنا، وتاريخنا لتفكيرنا على حد سواء، فمن المعلوم أن الإسلام هو دين العقل، لكن بعض المسلمين المتدينين يرون أن للعقل حدوداً، وهذا صحيح، لكن حدود العقل ليست هي الحدود التي يتصورونها ، وليست هي الحدود التي رسمها المنطق الأرسطي، أو المنطق اليوناني ولا الفلسفة ولا علم الكلام، وإنما هي حدود متغيرة وقابلة للتوسع مع الزمان ،ومن بديهيات التفكير الديني أن التكليف الإلهي قد تدرج، وأن التشريع الديني نفسه قد تدرج حتى اكتمل بما نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، لكن هذا لا يعني أن إكمال الدين الذي تحدث به القرآن الكريم ممتنا على العباد بإكمال الدين وإتمام النعمة يقتضي الوقوف بالعقل عند السنة التي نزلت فيها هذه الآية، لكن بعض الذين يسمون أنفسهم سلفيين يجادلون بأن كل ما لم يرد فيه نص فهو بدعة، في الوقت الذي يشرعون فيه معاملاتهم المالية المزدهرة على مبدأ أن كل ما لم يرد فيه نص فهو حلال.

كان من الطبيعي أن يبقى الأفغاني محلاً لنقد السلفيين، ولتحفظات السلفيين لأنه كان قادراً على أن يصل بالرأي العام الإسلامي إلى صيغة أخرى لتعامل العقل المسلم مع السلطة، يجعل السلطة العلمية للعالم في حاجة إلى التجديد بدلا من البناء على المكانة التي يكتسبها صاحب الأداء العلمي المتميز (الأستاذ) مع مرور الزمن.

## معنى اتهام السلفيين له بالماسونية

نتوقف بعد هذه المقدمة القصيرة لندقق بعض ما أصبح السيد جمال الدين الأفغاني يُرمي به منذ قويت شوكة من يُسمون أنفسهم بالسلفيين، وحتى الآن.

وعلى سبيل المثال فإن أقوى تهمة يواجهونها إليه أنهم يقولون إنه كان ماسونيا ، ويقطعون خط الرجعة المعروف فيردفون بأنهم يعرفون أن الماسونية في وقته لم تكن سبة ، ثم يردفون مقولة ثانية تقول : إنه بعقله كان من المفترض أن يكتشف سوء ما في الماسونية !! .. هكذا نقرأ دراسات مطولة تتحدث على هذا النحو ، وهي دراسات مصنوعة على النمط الشكلي المعروف على أنه بحث علمي ! فننتقل الدراسة من تلك الدراسات صفحات عن سيئات الماسونية ثم تدمج السيد جمال الدين الأفغاني في الحديث على هذه الطريقة التي لخصتها في سطرين .

ومع أننا لسنا معنيين في هذا المقام بالحديث عن طبيعة الماسونية ولا عن جودتها أو لا عن سوء مبتها أو هدفها ومع أننا أيضا لسنا معنيين بالحديث الجدلي عن علاقة السيد جمال الدين الأفغاني بها ، فإننا نحب أن ننتقل مباشرة إلى أن نسأل عن الدور الذي لعبه السيد جمال الدين الأفغاني من أجل الماسونية ، وعن أثر هذا الدور وعن بقية هذا الدور، ومما ينبغي أن يؤسف له في تأمل حظ أصحاب الاتهام أننا في الوقت ذاته محظوظون في أننا لا نجد أي أثر حقيقي ولا صناعي لشيء أنجزه أو فعله السيد جمال الدين الأفغاني للماسونية على أي مستوى ، و ينسحب هذا أيضا على تلميذه العظيم الشيخ محمد عبده ، فقد مرت الماسونية التي يتحدثون عنها على مجتمعنا الذي نعرفه جيدا مرور صرعات الأزياء أو السيارات الحديثة التي تنتهي صرعتها بعد سنوات قليلة من دون أن تُصنع في وطننا أو تُعدل في مصانعنا ، وبقية الماسونية في بلادها بعيدة عنا، وبقينا بعيدا عنها إلا من هذه السمات المظهرية التي كانت مفخرة في وقت من الأوقات ، ثم أصبحت تهمة، ثم أصبحت شيئا لا هو مفخرة ولا هو تهمة، وإنما أصبحت ذكرى سيئة نستعيد بالشيطان منها لنظهر وكأننا قد استكملنا الإيمان .

## أين هو أثر الماسونية في الإسلام السياسي

ما هو أثر الماسونية في الإسلام؟ لا شيء، ما هو أثر الماسونية في الإسلام السياسي؟ لا شيء على الإطلاق إلا شيئا واحدا فقط و وحيدا فقط ، وهو أن الإمام

الشهيد حسن البنا أعجب بمصطلح أستاذية العالم فاستعاره في إحدى الأدبيات فقال المتربصون: اضبط ماسوني! وفيما عدا هذا فالأمر كما قلنا مجهرات مظهرية .

هل لنا أن نتحدث عن طرفة لا ينبغي تأخير إذاعتها ، وهي أن الجناح السلفي من الإخوان (على نحو ما تقسمهم الدراسات الأمريكية الشبيهة بالتقسيمات التي تروج لها مؤسسة راند وشقيقاتها ) ينفون بكل ما يملكون من حنجرة و ليس من قلم ما هو معروف ومفهوم ومستقر و مألوف من انتماء الإمام الشهيد حسن البنا لمدرسة الأفغاني ومحمد عبده ، وهم يستخدمون حناجرهم الهادئة في هذا السلوك اقتداء بما يفعله السلفيون العرب من الهجوم الدائم والدائب على هذه المدرسة التي لا يستطيعون ابتلاعها ، و لهذا فإنهم من دون مناسبة يتبنون الاتجاه الذي لا يكتفي بنقد محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني ولا الهجوم عليهما وإنما يحرص على تحقير الرجلين بأقصى ما يمكن من التحقير الذي يجعل من يمارسه أقرب إلى أن يكون تكفيرياً .

### السبب الحقيقي في عداوة جماعات سلفية للأفغاني

ننتقل بالقارئ نقلة سريعة إلى تأمل السبب الحقيقي في عداوات كثير من الجماعات السلفية للرجلين، وهو سبب بسيط و جهير و واضح وضوح الشمس لا يحتاج إلى جهد كبير لاكتشافه ، فالرجلان ثائران والسلفيون المدخليون لا يحبون الثورة حتى لو كانت هذه الثورة ضد العثمانيين الذين لا يحبونهم ، وحتى لو كانت هذه الثورة ضد الإيرانيين الذي يعادونهم ! أي أن ثورة السيد جمال الدين الأفغاني ضد العثمانيين وضد الإيرانيين لم تجد أية فرصة من فرص "تقاطع المصالح" لتحظى بحب أو تقدير السلفيين السياسيين في جزيرة العرب ، وذلك لسبب جوهري هو أنهم مشغولون تماماً بفكرة الطاعة المطلقة لولي الأمر على الطريقة المدخلية.

### حقيقة موقف الأوربيين من السيد جمال الدين الأفغاني

و نأتي إلى الأوربيين فإذا بنا أمام آثار هجوم كاسح من الأوربيين المغرضين على السيد جمال الدين الأفغاني ، او أمام تجاهل تام من المعتدلين للأفغاني، و نسأل أنفسنا كيف يفعل الأوربيين هذا بمن صوره السلفيون ماسونيا غربياً أوربياً عدواً للإسلام أو جاسوساً للأوربيين ضد الإسلام؟ الإجابة كاشفة عن نفسها بوضوح ، وهي أن السيد جمال الدين الأفغاني كان في ثورته رجل حرية حقيقية تتمثل في حرية الإرادة التي دعا إليها الإسلام ، وليست حرية الانفصال والتمرد على العثمانيين التي كانت أوربا تبحث عنها بآبرة ، وتشجع عليها بكل طريقة..

ومن ناحية أخرى فإن السيد جمال الدين الأفغاني كان رجل ثورة لا على الحاكم وإنما على الأوضاع الخاطئة حتى وإن كان الحاكم جزءاً منها.

ومن ناحية ثالثة فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني رجل تقدم والغربيون الاستعماريون لا يشجعون رجل التقدم بعشر معشار ما يشجعون رجل التمرد من أجل التمرد و الذي هو أقرب إلى الهدم والتحطيم .

### حقيقة موقف المستعربين و العملاء من الأفغاني

ننتقل إلى العملاء الذين هم عملاء صرحاء أو عملاء مستترون مستخفون بينما هم ينسحقون ويستخذون أمام الغرب وبينما هم أعداء للهوية، حتى إنهم لا يعادون الإسلام كدين بقدر ما يعادونه كهوية، وأبرز هؤلاء هو الدكتور لويس عوض الذي هو اعدى أعداء السيد جمال الدين الأفغاني ، حتى أنه ظل يسقط أمام القراء في كل فقرة يهاجم فيها السيد جمال الدين الأفغاني سقوطاً حراً غير قابل للإنقاذ ، وحتى إنك لا تستطيع أن تتصور أنه بمهارته في الكتابة لم يستطع ستر حقه الطائفي على مناضل و ثائر وداعية و عقل عظيم كالسيد جمال الدين الأفغاني .

### أثر الدكتور محمد محمد حسين في التنفير من الأفغاني

نأتي إلى أهم سند مؤثر في رأينا وهو رأي أستاذ النقد الأدبي الأشهر الذي كتب النقد بالطريقة التي سميناها من باب الارتباط فحسب بالطريقة السلفية في النقد ، وأسس مدرسة متأثرة الأثر في هذا النقد الذي يؤثر دوماً أن يستريب في النوايا ، ويبنى على الاسترابة أحكاماً قاطعة تجعلنا ننظر حتى إلى من كتب الجملة لينفي صحتها على أنه كان ولا يزال مخطئاً لأنه كتب ما ينفيه قبل أن ينفيه، ولهذا فإن من الصعب أن نحكم حكماً عقلياً أو نصوصياً على السيد جمال الدين الأفغاني باستنتاجات استاذنا الدكتور محمد محمد حسين بينما هي في حقيقتها وبحكم محدودية النسيج النقدي الذي تعامل به الدكتور محمد حسين أقرب إلى الاستنتاجات القافزة، والاستشهادات المبتورة.

### عقل كبير قادر على التعبير المذهل وعلى الصياغة المثلى

نبدأ في مقارنة أثر السيد جمال الدين الأفغاني على سبيل الإجمال قبل أن نسرد تاريخ حياته الحافل فنقول إنه عقل كبير، قادر على التعبير المذهل وعلى الصياغة المثلى، وعلى إدراك المعاني الدقيقة والمفارقات المستترة، وقادر على الإمتاع



والإقناع والإثارة والخطابة والتحميس والتصحيح واللوم والتفريع، وبث روح الفهم والقضاء والحكم والفتوى والتعديل والجرح، وهو قادر على أن يتناول كل نص بفهم أعمق، وقادر على أن يتفهم كل واقعة بنظرة أوسع، وقادر على أن يستشهد وأن يستنتج، وأن يحث، وأن يثير ، وأن يحرض.

ومن العجيب أن نصوص السيد جمال الدين الأفغاني الذي توفي في ١٨٩٧ تبدو اليوم وكأنها عصرية تماماً في ألفاظها وصياغاتها ، ذلك أنه كان يدرك لب الحقيقة بعيداً عن القشور البيانية التقليدية، وهو يذكرنا في بيانه الناصع بالتصوير المصري القديم للإنسان والحيوان حيث يرسم المصري القديم الملامح بخطوط بسيطة لكنها معبرة تماماً فلا هو في حاجة إلى ظلال ولا إلى تكثيف أو تكعيب ، وإنما هو يرسم خطأً واضحاً قويا يستمد وضوحه وقوته من إدراكه للحقائق وتفريقه لما هو حقيقي عما هو غير حقيقي.

### لم يكن سهلاً على الأفغاني أن يتوافق كثيراً

لم يكن من السهل على السيد جمال الدين الأفغاني أن يتوافق مع أوضاع عصره، لأنه لم يكن يفكر في المكسب ولا في الخسارة ولا في الخطوات المرحلية ولا في البناء التراكمي وإنما هو يتحرك من أجل الحركة ويتوقف من أجل الاستعداد للحركة التالية، كان السيد جمال الدين الأفغاني يتصور نفسه شبيهاً بالطائرات من قبل ان يعرف الانسان الطائرة ، وشبيهاً بالمكوك الفضائي الذي يفقد حياته إذا توقف عن الحركة.

لم يكن هناك نظير تاريخي مبكر للأفغاني، لسبب وحيد هو أن ظروف دول الإسلام في عصر السيد جمال الدين الأفغاني لم تسبق من قبل على هذا النحو ولم يكن هناك نظير تاريخي متأخر للأفغاني لأنه استطاع أن يؤدي كل الأدوار المطلوبة للنهضة التي عاصرها فهو ثائر مفكر محرر مصمم موحد مجدد منسق مجمع وهو أيضاً باختصار شديد ومركز: عالم ، حالم ، راسم ، حاسم ، قاسم.

### خلافاته المتتالية مع الملوك

كان من الطبيعي أن يختلف السيد جمال الدين الأفغاني مع الحاكم الجديد الذي ثار على الحاكم الذي كان السيد جمال الدين الأفغاني نفسه رئيساً لوزرائه، وأن يترك بلاد الأفغان إلى إيران، وكان من الطبيعي أن يختلف مع حاكم إيران ، ومع حاكم مصر، ومع الخليفة العثماني ، ومع من استضافوه دون عقد أو عهد من

البريطانيين والفرنسيين والروس .. وذلك لأن السيد جمال الدين الأفغاني لم يكن في حاجة إلى قفص يحميه، ذلك أنه اختار الحرية.

### اختلاف الأفغاني مع تلميذه محمد عبده

كان من الطبيعي أن يختلف السيد جمال الدين الأفغاني مع تلميذه محمد عبده لأنه كان يعتقد أن جيل تلامذته لا بد أن يكون إلى اليسار منه لا إلى اليمين منه، أي أن يكون الواحد منهم أكثر ثورية وأكثر راديكالية، وأكثر تقدمية، وألا يلجأ مبكراً إلى الحكمة المتمثلة في العناية بالتربية قبل العناية بالثورة.

### مفكر عالمي لولا أن المسلمين لا يُنصفون

بعد هذا نستطيع أن نقرر بلا مبالغة أن السيد جمال الدين الأفغاني هو أول شخصية فكرية في العصر الحديث كانت لها دعوة سياسية واضحة الحدود والمعالم، وقد عمل لها بكل ما في وسعه، وارتحل واغترب من أجلها من دولة إلي أخرى علي نحو نادر لم يتح لغيره من الغربيين ولا الشرقيين، وجهاده في زمنه يفوق جهاد التنويريين المشاهير من أمثال فولتير في زمنهم في العناء والغناء على حد سواء .

وقد دعا إلي دعوته بنفسه في لندن وباريس وموسكو وميونخ، فضلا عن بومباي وكابل وطهران والقاهرة و الأستانة، وقد تفوق في اتصالاته و تواصله علي جهد المفكرين الغربيين في أشد البلاد الأوروبية اتصالا ببعضها.

وقد كان من الطبيعي أن يموت السيد جمال الدين الأفغاني قبل أن يبلغ الستين فقد كان صاحب سلطة معنوية رهيبه حتى انه لما أصدر مجلة العروة الوثقى في باريس تابعها العالم الإسلامي كله.

### لم يضع السلطة نصب عينيه

لم يكن ينقص السيد جمال الدين الأفغاني ليكون زعيما سياسيا حاكما صاحب دولة إلا أن يرغب في هذا ويجيش الجيوش من أجل هذا، ولو فعل لكان بإمكانه في لحظة من اللحظات أن يستولي علي رقعة من الأرض يبدأ بها دولته، ويحقق فيها دعوته ومثالياته ، لكنه لم يفعل، ولم تدفعه التجربة إلي أن يفكر في ضرورة هذا الحل، وإنما ظل يؤمل في أن يقوم بهذا الدور واحد من الحكام المسلمين الموجودين في السلطة هنا أو هناك أو هنالك ، و ذلك من دون أن يتعظ بتجاربه المريرة المتكررة، وخيبة أمله فيهم، وقد جرب الزعماء في بلاده الأفغانية، وفي مصر، وفي تركيا،

وفي إيران، وفي الهند ، ولهذا حق عليه أن يعيش داعية، وأن يموت وهو داعية من دون أن ينعم بأن يكون علي رأس دولة، أو أن تتحقق أفكاره في دولة أو أخرى.

### عاشت أفكاره حتى الآن رغم ملاحظته

مثل كل الإصلاحيين المفكرين فقد ظل السيد جمال الدين الأفغاني يحاول التأثير في النخبة السياسية، أي أمراء المسلمين وملوكهم، وكانوا يرحبون به في البداية، لكنهم سرعان ما كانوا ينقلبون عليه لخطورة أفكاره علي مستقبلهم السياسي. ومع أن السيد جمال الدين الأفغاني عاش حياته طريد آرائه الإصلاحية، وأفكاره التقدمية، فإن آراءه هذه نشرت اسمه وأثره علي نحو لم يتح لغيره.

### هل كان بلغة السلطة نصف ثائر؟

ارتكزت دعوة السيد جمال الدين الأفغاني علي ثنائية واضحة تتمثل في ضرورة تحرير الأمم الإسلامية من الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وقيام الجامعة الإسلامية علي أسس دستورية.

وارتكز السيد جمال الدين الأفغاني في عمله من أجل دعوته علي إيقاظ المسلمين بالعقلانية المستنيرة، ولم يكن ثائرا علي الدولة العثمانية بالمعني السياسي ، وإنما كان يؤيد بقاء الدولة العثمانية لتكون علي الأقل بمثابة حاجز أمام المد الاستعماري الأوروبي، فلما ضعفت آماله في بقاء الدولة العثمانية أخذ يناصر فكرة دولة حديثة في مصر على سبيل المثال ، ولم يكن من قبيل الصدف أن تركت دعوته آثارها في مصر، وإيران، والحجاز، والهند، و الآستانة.

### أستاذية العقل الخصب المثمر

كان السيد جمال الدين الأفغاني يملك كل مقومات العظمة الفكرية ، وقد جمع قدرات عالية من التعبير والتفكير معا، كما جمع قدرات عالية من التنوير والنثوير معا، وكان قادرا علي القيادة والإدارة، ولاشك في أن دعوته أثمرت ما لم تثمره غيرها من الدعوات، وأن أستاذيته وشخصيته أثمرتا ما لم يتحقق لأي شخصية أخرى تصدت للتدريس والتعليم في العصر الحديث.

### القدرة علي التعلم

ظل السيد جمال الدين الأفغاني قادرا علي التعلم طيلة حياته، ويروي أنه تعلم التركية حين سافر إلي اسطنبول، كما يروي أنه وهو في قزوين كان مهتما بدراسة

العلوم الطبية، وأنه حاول معرفة أسرار مرض الطاعون الذي أصاب قزوين في تلك الفترة بدراسة جثث ضحايا المرض، لكن والده خاف عليه فانتقل به إلي طهران (١٨٤٩).

### **القدرة على خلق الدوامات المتجددة**

وعلي سبيل المثال أيضا فإن السيد جمال الدين الأفغاني جاء الأزهر وافدا فحوّله إلي معقل ثورة، وفتحول حال القاهرة من حال إلي حال بوجوده ونشاطه، فلما عاش في باريس جعلها، لفترة من الزمن، عاصمة صحفية للعالم الإسلامي من خلال مجلة «العروة الوثقى»، وهكذا كان حاله في كل مكان يحل فيه لبعض الوقت، ولم يتح لأحد أن يسبقه إلي كل هذا، ولم يتح لأحد من تابعيه أن يلحقه في هذا كله.

### **إعجاب جماعة المسلمين به**

استمر الجمهور والخاصة معا في الإعجاب بشجاعة السيد جمال الدين الأفغاني وقدراته وإخلاصه وكفاحه الطويل من أجل الحرية والرقي والعدل والكرامة، ولايزال السيد جمال الدين الأفغاني بتاريخه منارة قادرة علي ضرب المثل للجهاد السياسي الدائب، والإخلاص للفكرة.

### **فضل الدكتورين محمد عمارة وحسن حنفي**

يعود الفضل إلي الدكتور محمد عمارة ، بأكثر من غيره ، في جمع آثار السيد جمال الدين الأفغاني وترتيبها واستخلاص ما كان منسوبا منها إلي الشيخ محمد عبده ونسبته الصحبة إلي السيد جمال الدين الأفغاني .

وفيما بعد وفاة السيد جمال الدين الأفغاني بما يقرب من قرن من الزمان حاول الدكتور لويس عوض الهجوم عليه وعلي سيرة حياته وتوجهاته مستخدما كل مهاراته في التشويش والتشكيك لكن هذه المحاولة سرعان ما باءت بالفشل،

وقد تصدي الدكتور حسن حنفي لكل دعاوي لويس عوض ففندها علي أروع ما يكون حافظا للأفغاني مكانته المرموقة، ومضيفا عليه ما يستحقه من مجد ، فات الأولين أن يسبغوه عليه. ومن الحق أن مرور الزمن كان كفيلا بأن يرشدنا إلي نواح أخرى من العظمة في شخصية جمال الدين السيد جمال الدين الأفغاني ، وهو ما أنجزه الدكتور حسن حنفي بجدارة.

## نشأته

اسمه بالكامل محمد جمال الدين صفتري علي مير رضي الدين محمد الحسيني. ولد في قرية أسد أداب، إحدى قري حُطّة كندر من أعمال كابل في شهر شعبان من عام ١٢٥٤ هـ، وكانت أسرته صاحبة الإمارة في الإقليم، لكن هذه الإمارة انتزعت منها، وهكذا انتقلت أسرته إلي كابل، وفيها تلقى السيد جمال الدين الأفغاني تعليمه الأول، تحت إشراف والده، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ اللغة العربية.

## الانتقال إلى قزوين و طهران و النجف

وفي عام ١٨٤٨ أي وهو في حوالي العاشرة من عمره ، التحق بمدرسة قزوين ومكث بها سنتين، ثم انتقل مع والده إلي طهران، وهناك درس علي أكبر علمائها أفاسيد صادق، ثم سافر في العام نفسه إلي مدينة النجف العراقية ودرس فيها التفسير والحديث وأصول الفقه والكلام والفلسفة والمنطق، كما درس أيضا علوم الرياضة والطب والتشريح وعلم الهيئة والنجوم.

## السفر للهند للتعلم

في عام ١٨٥٣ سافر إلي مدينة كلكتا الهندية حيث واصل دراسة بعض العلوم الأوروبية الحديثة، وبعد دراسته في الهند قام بعدة جولات في كثير من المدن في شبه الجزيرة الهندية.

## العودة إلى كابل

ثم استقر في كابل التي كان يشتاق إليها بعد أن طردت أسرته منها، وقد استقر بها زمنا واشترك في صراعاتها السياسية معتمدا علي ماضي أسرته من ناحية، وعلي قلمه ولسانه وحجته ونشاطه واقتناع الجماهير به وبأفكاره من ناحية أخرى، ووصل فيها إلي منصب الوزير الأول.

## اللجوء إلى الهند ومنها إلى مصر

وحين هزم أميره رحل إلي الهند فلم يمكث بها سوي شهر واحد فقط، إذ حاصرته حكومتها الإنجليزية ومنعته من لقاء العلماء أو الجماهير.

وارتحل إلي مصر ليبدأ أعلي نقطة في مسار حياته الثورية، ذلك أنه لما دخل القاهرة للمرة الأولى ( ١٨٧٠ ) التف حوله عدد كبير من الطلاب الشرقيين الذين يدرسون بالأزهر فشرح لهم كتاب «شرح الإظهار في اللغة العربية».

### السفر إلي الأستانة

وبعد ٤٠ يوما سافر إلي الأستانة فدرس اللغة التركية وأتقنها، وبدأ يمارس نشاطا سياسيا وفكريا في عاصمة الخلافة العثمانية حتي حقد عليه رجال السياسة والفكر علي حد سواء، وطلب منه مغادرة الأستانة فعاد إلي مصر .

### العودة إلي مصر

كان مجيئ السيد جمال الدين الأفغاني إلي مصر للمرة الثانية ( ٢٣ مارس ١٨٧١ ) أمرا متوقعا، ولا يمكن اعتباره بمعزل عن قدومه الأول ، وأقام فيها ثماني سنوات و عدة أشهر كانت بمثابة أخصب فترات حياته فكرا وسياسة.

وقد اهتدى إلي صحبة السيد جمال الدين الأفغاني كثير من طلبة العلم فدرس لهم في بيته بخان الخليلي الكتب العالمية في فنون الكلام، والحكمة النظرية، طبيعية وعقلية، وفي علم الهيئة الفلكية، وعلم التصوف، وعلم الفقه الإسلامي،

### الآفاق التي امتدت إليها أستاذيته

ولم يكن السيد جمال الدين الأفغاني يقف في مصادره العلمية عند مذهب معين، وقد سجل التاريخ العلمي أن المتون والحواشي التي شرحها في أثناء إقامته في مصر تعددت فكان منها:

- الزوراء للدوائي في التصوف
- شرح القطب علي الشمسية
- المطالع وسلم العلوم في المنطق
- الهداية، والإشارات، وحكمة العين، وحكمة الإشراق في الفلسفة
- عقائد الجلال الديواني في التوحيد
- التوضيح والتلويح في الأصول
- الجغميني، وتذكرة الطوسي في الهيئة القديمة

### وصف د. أحمد عبد الرحيم مصطفى لعلاقة محمد عبده به

بلا جدال فإن أبرز تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني هو الشيخ محمد عبده. وقد لخص المؤرخ العظيم الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى علاقة الرجلين الفكرية بأن شبيههما بأرسطو وأفلاطون، وهو تشبيه عبقرى، وإذا كان محمد عبده قد عرف منذ ذاك الحين بأنه أبرز تلاميذ السيد جمال الدين الأفغاني، فإن عددا لا يستهان به من الأدباء والصحفيين قد تلقوا العلم والفكر عنه وانتفعوا بأستاذيته بطريقة مباشرة.

### التطور الذي أصاب فكر محمد عبده

ظل السيد جمال الدين الأفغاني أيضا علي عقيدته في ضرورة الإصلاح السياسي، بينما طور تلميذه محمد عبده من توجهه وأصبح أكثر ميلا إلي الإصلاح الاجتماعي، والإصلاح التدريجي عن طريق التعليم، بل خطأ في هذا التوجه خطوة أوسع حين قبل التعاون مع الإدارة الإنجليزية المحتلة لمصر في ذلك الوقت، وبسبب هذا حدث ما يمكن وصفه بالافتراق السلمي بين الرجلين، وهو افتراق قاد إلي جفاء واضح، بيد أن الأستاذ محمد عبده نشر أروع مرثية للأستاذ السيد جمال الدين الأفغاني .

### موقف محمد عبده من سيرته التي كتبها

من المتداول أن الأستاذ محمد عبده لم يعن بأن ينشر السيرة التي كتبها لحياة أستاذه، بل كان أقرب إلي الحرص علي تجاهلها بسبب حرصه علي استمرار علاقته الودية مع الإنجليز، لكن هذه السيرة عُرفت وتُدوولت بعد وفاة الأستاذ الإمام وأصبحت المصدر المفضل (والأول) لكتابة تاريخ الأستاذ السيد جمال الدين الأفغاني

### الصحفيون الذين ارتبطوا بأستاذيته

كان من هؤلاء أديب إسحق الذي ساعده السيد جمال الدين الأفغاني علي إصدار صحيفة «مصر»، كما أنه ساعده هو وسليم نقاش في الحصول علي إصدار صحيفة «التجارة» اليومية التي كان تصدر في الإسكندرية، وهو الذي رشح إبراهيم اللقاني لتولي صحيفة «مرآة الشرق» بعد أن تركها سليم العنحوري، وكذلك كان السيد جمال الدين الأفغاني أستاذا للمويلحيين إبراهيم ومحمد، وللزعيم العظيم سعد زغلول.

## بناؤه على جهد رفاة الطهطاوي

لم يقف أثر السيد جمال الدين الأفغاني عند الثورة السياسية، وإنما بفضل هذه الجهود استضاءت الحياة المصرية بأنوار العلم الحديث الذي كان لا يزال بعيدا عن معقل العلم في الأزهر، علي الرغم من جهود رفاة الطهطاوي في التنوير التي سبقت جهود السيد جمال الدين الأفغاني في التنوير، وهكذا وجدت في مصر علي عهده وبفضله فئة مصرية جديدة تمثل نخبة فكرية تحررت عقولها من الجمود.

## الحزب الوطني الحر (السري) و بعث الثورة المصرية

ساعد السيد جمال الدين الأفغاني في أثناء إقامته في مصر علي تكوين ما عرف باسم الحزب الوطني الحر (السري) الذي كان يناهض الحكم الفردي الاستبدادي، والتدخل الأجنبي ، و يدعو إلي الحرية والديمقراطية والدستور، وكان لهذا الحزب دوره الأساسي والجوهرية في تمهيد الأرض للثورة العربية التي كانت بمثابة أولى الحركات التحريرية في عصرها من حيث تأثرها بالفكر الإسلامي الثوري الذي مثله السيد جمال الدين الأفغاني خير تمثيل.

وقد انتهج السيد جمال الدين الأفغاني في سبيل تنوير المصريين كل السبل عن فطرة صائبة، فكان يقدم في دروسه وكلماته نواة الثورة علي الأوضاع الخاطئة والفسادة، وكان يري في النصوص المتاحة بين يديه ضوء الحقيقة الهادي إلي التقدم، وكانت مقالاته وخطبه حماسية نارية، تحظي بالقبول وتدفع إلي تقليدها واقتفاء أثرها، وقد شجع بنفسه كثيرا من الكتاب وساعدهم علي إصدار صحافة حرة.

## اللجوء الى الاتصال بال جماهير

ظل السيد جمال الدين الأفغاني في أثناء إقامته في مصر يخالط الطبقات الشعبية، ويغشي الأندية والمقاهي التي تغشاها الجماهير ، وفي مصر ، وليس قبلها ، حدث التطور الجوهري في نشاط السيد جمال الدين الأفغاني من أجل دعوته ، إذ لم تعد دعوة السيد جمال الدين الأفغاني موجهة للمفكرين والمثقفين وحدهم، لكنه سرعان ما اتجه إلي العامة يخطب فيهم الساعات الطوال مؤثرا فيهم بقوة بلاغته، وأفكاره.

## وقوعه في حب التدخين

وكان من الذين أحبوا التدخين ورأوا فيه تنفيسا للعصبية ، وذلك قبل أن ينظر المجتمع إلي التدخين علي حقيقته المؤذية ، وهو أنه عادة مضره للصحة، وكان السيد



جمال الدين الأفغاني كريما في تقديم «السعوط» لضيوفه حتي وصف بأنه كان يقدم الثورة بيد والسعوط باليد الأخرى.

### معاناته في عهد الخديو إسماعيل

بدأت متاعب السيد جمال الدين الأفغاني مع عهد إسماعيل تتصاعد، حتي إنه اتهم صراحة بأنه اشترك في تدبير حادث لاغتيال الخديو، ومع هذا فقد نمت للأفغاني ومحمد عبده علاقة وثيقة بالخديو توفيق الذي كان لا يزال وليا للعهد، فلما تولي الأمر ظن الرجلان أن بوسعهما أن ينهضا لتحقيق أفكارهما السياسية علي نطاق أوسع وأعرض، لكن السلطة هي السلطة، فبسبب هذا النشاط الواسع غضب الخديو توفيق (بأمر الانجليز ولا يستغربين أحد من هذا التعبير الصريح) علي السيد جمال الدين الأفغاني وقام بنفيه إلي جزيرة «بومباي» الهندية (١٨٧٩).

### زيارة صديقه بلنت في لندن

وبعد ثلاث سنوات ترك السيد جمال الدين الأفغاني الهند واتجه إلي باريس (١٨٨٣)، وفي طريقه نزل ضيفا علي المستشرق البريطاني المنصف المحامي بلنت ١٨٤٠-١٩٢٢ الذي صار صديقا له وللشيخ محمد عبده والعرايين ودافع عنهم وسجل بعض ذكرياتهم، كما سجل ذكرياته عنهم. وكان بلنت هو الذي دعاه إلي لندن لمساعدته في التباحث مع الساسة الإنجليز حول المسألة السودانية والمصرية، لاسيما حول الثورة المهديّة المشتعلة، وحول تكوين حلف يضم إنجلترا وتركيا وإيران وأفغانستان، لكن إنجلترا لم ترحب به علي نحو ما كان يؤمل.

### رحلة موسكو

وعندئذ خطا السيد جمال الدين الأفغاني خطة من التي توصف في السياسة بأنها حادة القلب، بينما هي بالمنطق نتيجة طبيعية، ذلك أن السيد جمال الدين الأفغاني انطلق منذ ذلك الحين إلي التفكير بطريقة أن عدو العدو صديق، وهكذا فإنه سافر إلي موسكو حيث انضم إلي المنادين بإنشاء حلف تركي روسي ضد إنجلترا.

### نشاطه و تألقه في باريس

وفي باريس ( التي أصدر فيها مجلته الشهيرة : العروة الوثقى ١٨٨٤) تحرك الأفغاني بين الجاليات الشرقية لتنشيط روابطها ونواديها، كما أقام علاقات تحالف وتعاون مع المنظمات الاجتماعية والثورية من نقابات، وأحزاب، وجمعيات فرنسية.

## مناظرة رينان

أتيح للسيد جمال الدين الأفغاني أن يكتب في الصحافة الفرنسية مدافعا عن العروبة والإسلام، مقاوما للهجمة الاستعمارية، ومن أشهر مقالاته في فترة فرنسا رده علي المستشرق الفرنسي أرست رينان ١٨٢٣- ١٨٩٢ الذي اتهم الإسلام بمعاداة العلم، وتقييد حرية العلماء، كما اتهم العقل العربي بالقصور، فرد عليه السيد جمال الدين الأفغاني بمحاضرة نشرتها صحيفة «ديبا» الفرنسية ١٩ مايو ١٨٨٣، وطبعت في كتيب خاص، وانتزعت احترام رينان للأفغاني واعترافه بتأثيره فيه.

## العودة إلى الجزيرة العربية وإيران

في عام ١٨٨٦ ترك الأفغاني أوروبا كلها إلى الجزيرة العربية فمكث فيها عاما، ثم رحل إلى طهران بدعوة من شاه إيران ناصر الدين، الذي وعده بتنفيذ أهدافه في التجديد والديمقراطية، لكنه سرعان ما أظهر له قدرا كبيرا من الجفاء لتخوفه من عواقب الإصلاح الديمقراطي. وعندئذ غادر الأفغاني طهران إلى موسكو (١٨٨٧) لتنسيق جهود الحركة الإسلامية مع القيصرية الروسية ضد الاحتلال الإنجليزي في مصر والهند.

## السفر إلى ألمانيا و الاتفاق مع الشاه

ثم سافر السيد جمال الدين الأفغاني إلى ميونيخ بألمانيا وهناك قابل شاه إيران الذي عرض عليه العودة إلى طهران وتعيينه رئيسا للوزراء فوافق بعد إلحاح، لكن الوفاق بينهما لم يدم طويلا لخوف الشاه من الديمقراطية والدستور، وقد أراد أن يحدد إقامة السيد جمال الدين الأفغاني، لكن السيد جمال الدين الأفغاني لجأ للاعتصام بمقام عبد العظيم، ومكث به سبعة أشهر كتب خلالها مقالات عن مثالب الشاه قاصدا تحريض الشعب علي خلعه، فطرده الشاه إلى العراق.

## قيمه الصحفية

إذا كانت الثورة السياسية هي أولى ميادين نشاط السيد جمال الدين الأفغاني، فإن الصحافة هي بلا شك ثاني ميادين نشاط السيد جمال الدين الأفغاني أهمية، وأشهر أعماله فيها إصدار مجلة «العروة الوثقى» التي كانت أفكارها له، علي حين كان لتلميذه محمد عبده فضل تحريرها، وقد صدر منها ١٦ عددا في الفترة من مارس ١٨٨٤ إلى أكتوبر ١٨٨٤، وكان هدف هذه المجلة الأساسي محاربة الاحتلال

الإنجليزي في مصر والهند والسودان، والعمل علي تحرير الأقطار العربية والإسلامية، و كانت محاولة جريئة رفعت من شأن الفكر السياسي المستنير. وقد نشر الأفغاني مقالات في صحف مصر كان لها دويها، مثل مقاله عن "الحكومات الشرقية"، و"روح البيان في الإنجليز والأفغان"

### تطوير الأساليب العربية في الكتابة والخطابة

بفضل السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده تطور أسلوب الكتابة العربية والخطابة خطوات واسعة، ولسنا نشك في أن الترسل في أساليب الكتابة العربية قد بدأ كنتيجة طبيعية لتمثل أسلوب السيد جمال الدين الأفغاني الذي كان معنيا مباشرة بالجواهر، بعيدا عن زخارف القول التي كانت لاتزال سائدة في ذلك العهد.

### آثاره المطبوعة

ترك السيد جمال الدين الأفغاني مئات المقالات المنشورة في أكثر الأقطار التي زارها والتي ترجم فيها مشروعه الإصلاحية: «إعادة الإسلام لأصوله وجذوره النقية»، و«تكوين دولة وقانون ومجتمع يشبه النماذج المثالية الأوروبية» وقد كتب في التربية، والفلسفة، والأخبار، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ.

بسبب الترحال الدائم لم يصنف السيد جمال الدين الأفغاني كتبا إلا: «تنمة البيان في تاريخ الأفغان»، و«رسالة في الرد علي الدهريين» التي ترجمها الأستاذ محمد عبده إلي اللغة العربية. كما جمع محمد المخزومي كثيرا من آرائه وأصدرها في كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغاني» و نحن نكرر الإشارة بجهد الدكتور محمد عمارة في جمع آثار السيد جمال الدين الأفغاني وترتيبها واستخلاص ما كان منسوبا منها إلي الشيخ محمد عبده ونسبته الصحبة إلي السيد جمال الدين الأفغاني.

### وفاته

توفي السيد جمال الدين الأفغاني في الآستانة (اسطنبول) ٩ مارس ١٨٩٧، ودفن في هدوء أقرب إلي التجاهل، ثم نقل رفاته بعد أكثر من نصف قرن إلي كابول (١٩٤٤).

## الفصل الثاني : الشيخ محمد عبده

### زيارة سريعة لفكر الأستاذ الإمام

ذات مرة قابلني اثنان من الأصدقاء المهنيين الملتزمين غير الأزهريين وقالوا إنهما انتهيا لتوهما من قراءة كتابنا "الضخم" عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأعجبهما ما لم يتصوراه بهذه الدرجة من أن الرجل كان متعدد الزوايا في رؤيته ونشاطه ، وأنا في رأيهما أحسنا صنعا حين تناولنا زواياه المختلفة بطرق مختلفة في أبواب مختلفة ، لكنهما يطلبان منا أن نقدم لهما في نقط محددة رؤيته للإسلام نفسه كدين قادر على التحدي في العقود القادمة من القرن الحادي والعشرين . ومع صعوبة طلبهما هذا فإننا إيماناً بذكاء الطالب والحاجة الملحة إليه سنحاول تلخيص بعض المقاربات التي تفوق بها الأستاذ الإمام على سابقيه وسبق إليها لاحقيه.

### تكوين شخصية المسلم

كان الأستاذ الإمام محمد عبده في شرحه لأصول الإسلام ينبه إلي ما امتازت به هذه الأصول في تكوين شخصية المسلم الآخذ بها، حتي إنه كان يلفت النظر إلي أن الآخذ بأصول إسلام علي حقيقتها يصل بتفكيره إلي ما لا يصل إليه الفيلسوف، وهو يدلل علي هذه الرؤية بأسانيد فلسفية ومنطقية تراعي كل الأصول التي يلتزم بها الفلاسفة والمناطق في بناء أحكامهم.

### عرضه الفلسفي لأصول الإسلام

وكأننا بمحمد عبده في عرضه لأصول الإسلام كان يباهي بها علي أهل الفلسفة المتحيزين لها، والآخذين بناصيتها، والمعتمدين علي أصولها في تفكيرهم وأحكامهم، وكأننا بمحمد عبده في حديثه عن أصول الإسلام قد صاغه وكأنه حديث موجه إلي الفلاسفة قبل غيرهم، بل ربما إلي الفلاسفة وحدهم.

ويظهر لنا مما يقدمه الأستاذ الإمام محمد عبده في هذه الأصول أن صياغته كانت حريصة علي ترجمة الفكر الإسلامي بألفاظ فلسفية دقيقة من دون أن يفقد الفكر الإسلامي جوهره، أو بعبارة أخرى فإنه يقدم الفكر الإسلامي بألفاظ الفلاسفة ومصطلحاتهم، وإن كان قد تمكن من تطويع هذه المصطلحات والمفاهيم في أبسط الألفاظ الفلسفية وأكثرها دلالة علي المعني المراد تناوله.

ولعل في حديث الأستاذ الإمام محمد عبده عن الأصل الأول من أصول الإسلام ما يدل علي هذه المعاني بصورة قاطعة.

### قدرة الإسلام علي احتواء أبنائه

و قد نبه الأستاذ الإمام محمد عبده إلي الحديث عن قدرة الإسلام علي احتواء أبنائه والمنتمين له وعدم تعريضهم لمحنة العزل أو الإبعاد أو التكفير، وهو يوظف معرفته الواسعة بآراء فقهاء الإسلام ومفكره في الاعتماد على النصوص الداعية إلي التسامح المطلق إلا قليلا، أو التسامح بنسبة ٩٩٪ إذا استعملنا لغة الأرقام، ثم هو لا يترك الأمر من دون أن يدين بطريقة مهذبة من يصر علي الكفر إصرارا مطلقا، وهو حين يدينه يذكره بما عرفته أوروبا وعانتها من محاكم التفتيش.

### الاعتبار بسنن الله في الخلق

وتحدث الأستاذ الإمام محمد عبده عن قيمة الاعتناظ والاعتبار بسنن الله في الخلق، أو ما نسميه التعلم من دروس التاريخ والطبيعة، ومع أن فكرتنا عن مثل هذا الخلق تجعله أقرب ما يكون إلي أن يعد من أركان الحكمة ، فإننا نري محمد عبده يصوره علي أنه أصل من أصول الإسلام، وهو حين يميل إلي هذا الرأي يستند إلي ما نصت عليه آيات القرآن الكريم من أدوار مباشرة تدعو إلي هذا الاعتبار، وإلي ما لفتت النظر إليه من أن سنن الله في الكون ثابتة، وأن نظام المجتمعات البشرية يخضع لقواعد لا تتغير ولا تتبدل.

### اعتباره الوعي بالتاريخ أصلا من أصول الإسلام

ومن الطريف أن دعوة الأستاذ الإمام محمد عبده إلي اعتبار الوعي بالتاريخ أصلا من أصول الإسلام تفتنر بطريقة منطقية بدعوة أخري (وملازمة) إلي دراسة اللغة العربية وآدابها ، باعتبار ذلك جزءا مكملا لفهم كتاب الإسلام وهو «القرآن الكريم»، الذي جاء في لغة عربية هي لغة أعدائه الأقربين، وذلك علي الرغم من أن الإسلام قد جاء لمحو الوثنية.. عربية كانت أو يونانية أو رومانية.. إلخ.

### المقارنة بين المسيحيين والمسلمين من حيث عنايتهم بلغة كتابهم

كان الأستاذ الإمام محمد عبده حريصا على المقارنة بين المسيحيين والمسلمين من حيث عنايتهم بلغة كتابهم، وهو يقدم العذر للمسيحيين فيما فعلوه من هجران لسان المسيح عليه وعلى نبيينا محمد أفضل الصلاة والسلام بسبب كراهيتهم لليهود الذين

كان المسيح ينطق بلسانهم، ويعظهم بلغتهم، علي حين أن المسلمين ركبوا الأسفار، وأنفقوا الأعمار، وبذلوا الدرهم والدينار (علي حد تعبيره) من أجل دراسة اللغة العربية، وفهم كتاب الله المنزل.

### السلطة الدينية والعلاقات الخارجية في فكر محمد عبده

كان من جوانب التفوق العديدة للشيخ محمد عبده كمفكر سابق في عصره و كمفكر سابق لعصره تناوله الذكي لقضية السلطة الدينية وتناوله الأذكي لعلاقة المسلمين بغيرهم .

نبه الإمام الشيخ محمد عبده إلي موقف الإسلام من السلطة الدينية، وعبر بألفاظ صريحة واضحة وقاطعة عن موقف الإسلام من السلطة بأنه " قلب هذه السلطة وهدمها ومحا أثرها".

### جوهر الإسلام هو هدم ما يسمى بالسلطة الدينية

ويبدو محمد عبده حريصا علي هذا المعني حرصا شديدا، مع أنه كان في إمكانه أن يستخدم عبارات من قبيل ترشيد السلطة وتهذيبها أو تطويرها أو الرجوع بها إلي أصلها.. إلخ، لكن محمد عبده بذكائه اكتشف أن جوهر الإسلام لا يخرج عن الحرص علي هدم هذه السلطة، وهو المعني الذي نصت عليه نصوص قرآنية كثيرة جعلت الإيمان كفيلا بأن يعتق المؤمن من كل رقيب عليه، ويجعل علاقة الإنسان بالله علاقة مباشرة ليس فيها رق ولا عبودية ولا وصاية ولا وساطة ولا تجسس ولا تتبع للعورات، وإن كان فيها نصح وإرشاد، ودعوة وإنذار، وسؤال وجواب واستيضاح.

### الإسلام ذو قوة لإقامة حدوده

ومع هذا كله فإن هذا الأستاذ الإمام كان ينبه إلي أن الإسلام كان ذا حدود وذا حقوق وذا قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الحكم القاضي بالحق، كما أنه حريص علي صيانة نظام الجماعة، لكن الخليفة أو السلطان الذي يقوم بهذه المهمة لا يكتسب منها معصومية، ولا انفرادا بالرواية والتفسير، مع أن الاجتهاد شرط من شروط اختياره حتي يتمكن بنفسه من التمييز والعدل، لكنه يظل مع ذلك واحدا من أولي الفهم لا يمتاز عنهم بسبب توليه السلطة، حتي إن طاعته لا تجب إلا طالما كان ملتزما بالمنهج، فإن فارق الكتاب والسنة وجب استبداله إلا إذا كان في هذا الاستبدال مفسدة

تفوق المصلحة، وفي هذا كله فإن الإسلام يؤمن بالنظم المدنية في تناول السلطة ثم في تداولها.

### نفي فكرة الثيوقراطية عن الخلفاء

هكذا فإن الأستاذ الإمام في تناوله لهذا الأصل من أصول الإسلام كان حريصا علي نفي فكرة الثيوقراطية (الحكم الإلهي) عن خلفاء المسلمين، وهو يقيم أدلته القوية علي أن هذا الوصف لا ينطبق أبدا علي الخلافة الإسلامية علي نحو ما تضمنتها فلسفة الإسلام ونظمه.

### حماية الدعوة لمنع الفتنة

حرص الأستاذ الإمام علي تناول فكرة التسامح في الإسلام من خلال البحث عن فكرة أعمق، أو عن أصل أكثر أصالة، وهو حماية الدعوة لمنع الفتنة، وفي هذا الصدد فإن محمد عبده قرر بكل وضوح أن القتل ليس في طبيعة الإسلام، وإنما العفو والمسامحة، وأن الفتوح الإسلامية لم تأخذ بما أخذت به الفتوحات المسيحية من قتل الشيوخ والنساء والأطفال، ولا هي أخذت بفكرة حروب الإبادة.

### قادة المسلمين يجلّون العباد المتفرغين للعبادة

عقد الأستاذ الإمام ما أسماه مقارنة بين الإسلام والمسيحية منبها إلي كثير من الحقائق التي حاول أعداء الإسلام تصويرها علي خلاف الواقع والتاريخ، ومن ذلك لفته النظر إلي أن الإسلام كان يدخل الأرض المفتوحة تحت سلطانه مع ترك حرية العقيدة للناس، كذلك فقد كان قادة المسلمين يجلّون العباد المتفرغين للعبادة ويوصون باحترامهم واحترام حقوقهم. وفي مقابل ذلك، فإن ما سمي بالمسيحية السلمية كانت تري أن من حقوقها القيام علي دين من يدخل تحت سلطانها ومراقبة أعمال أهلها، ولم تكن تعرف الاستثناء في هذا إلا للمجتمعات كثيرة العدد، أو شديدة العضد.. وهكذا.. وهكذا.

و قد نبه الشيخ محمد عبده إلي الحديث عن ملامح أصل مهم من أصول العقيدة الإسلامية، وهو ما يسميه «مودة المخالفين في العقيدة»، ضاربا علي هذا المثل بما نعرفه من أحكام الإسلام في المصاهرة علي سبيل المثال، وهو ينبه إلي أن حقوق الزوجة الكتابية لا تقل عن حقوق الزوجة المسلمة، لافتنا النظر إلي أن هذا الوضع المثالي لا يزال مفقدا فيما بين الطوائف المسيحية بعضها وبعض.

## الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

في حديثه عن الأصل الثامن للإسلام الذي يطلق عليه «الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة»، عمد الأستاذ الإمام في ذكاء شديد إلي عقد المقارنة الفارقة بين تعاليم الإسلام والمسيحية في هذا الشأن، لافتنا النظر إلي أن صاحب الدين الإسلامي (صلي الله عليه وسلم) لم يقل «بع ما تملك واتبعني»، وإنما قال: «إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس»، وهو يشير إلي مظاهر يسر الإسلام في الصوم، والوضوء، والغسل، والقيام، والسعي إلي الجمعة، وإلي ما أباحه الدين الإسلامي من نعيم، وزينة، وإنفاق، وحفظ للدين.

## حرص الإسلام علي حقوق الحواس

يضمّن الإمام محمد عبده حديثه عن هذا الأصل ما تميز به الإسلام من النهي عن الغلو في الدين، وحرص الإسلام علي حقوق الحواس، وكمال الروح، والجمع بين العناصر الحقيقية للإنسان بعيدا عن فكرة " الملكوتية "، والقدرة علي أن يكون الإنسان من أهل الدنيا والآخرة معا، وهو يؤكد كذلك أن الإسلام حريص علي الغريزة حرصه علي الرقي بالإنسانية. وقد انتقل الأستاذ محمد عبده بعد هذا كله إلي ضرب أمثلة حية من التاريخ علي مردود هذه التربية الإسلامية في علاقة المسلمين بالعلم والتفكير، ثم اشتغالهم بالعلوم الأدبية والعقلية.

## الوصف الذكي الذي وصف به قاسم أمين عبقرية إمامته

كان الشيخ محمد عبده كان رجلاً عظيماً، قبل أن يكون مصلحاً ووطنياً وفيلسوفاً وقد وصل إلي مقام الإمامة بأوسع معناها، وقد وصف قاسم أمين هذا المقام بأنه «ذلك المقام الذي مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها، ويحركها نحو الخطة التي رسمها، ويسوقها إلي طريق المستقبل الذي هياها لها، ولم يستمد مقامه ذلك من منصب عال في الحكومة، ولا من رتبة رفيعة، ولا من ثروة طائلة، ولا من نسبه إلي بيت قديم، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس، إنما هو مقام اكتسبه بفضائله الشخصية العالية، ونفسه الجميلة الممتازة».



## جوهر إصلاحه أن الدين هو أساس الرابطة الاجتماعية

انطلق الشيخ محمد عبده في رؤيته الإصلاحية من فكرة أن الدين هو أساس الرابطة الاجتماعية، وقد جاهد في سبيل توكيد هذه الفكرة ما استطاع، وكانت رؤيته هذه متزنة إلى أبعد حدود الاتزان، ومعتدلة إلى أبعد حدود الاعتدال، ولسنا نستطيع أن نقدر مدى الاتزان والاعتدال فيها إلا بالتأمل في كل نهج سار عليه تلاميذه وخلفاؤه، وعلى سبيل المثال فإننا نجد تلميذه وكتاب سيرته الشيخ محمد رشيد رضا ينحو بالفكر إلى اليمين قليلا في بعض الأحيان، وكثيراً في أحيان أخرى، ومن ناحية أخرى فإن أبرز تلامذته يذهبون بحكم السياسة ودوافعها ومتطلباتها إلى إحلال الدافع الوطني محل الدافع الديني دون أن يمسوا أسس الانتماء إلى الإسلام، وهكذا بدأ أحمد لطفي السيد على سبيل المثال يدعو إلى القومية المصرية، وهكذا نظر سعد زغلول إلى الجامعة على أنها بيت العلم، بل وصل في إحدى عباراته إلى قوله: إن دينها العلم.

## وظائفه قبل الثورة العربية

نال الأستاذ الإمام محمد عبده الشهادة العالمية ١٨٧٧، وكانت هذه هي خامس (أو سادس) سنة تعقد فيها امتحانات العالمية وتمنح بمرسوم خديوي، وذلك بعد التعديل الذي أدخله الشيخ محمد العباسي المهدي (١٨٧٢).

وقد عُين محمد عبده مدرسا للتاريخ بمدرسة دار العلوم العليا، كما درّس بمدرسة الألسن، واختار أن يشرح لطلابه مقدمة ابن خلدون كمقرر في التاريخ (!!)

وكان في الوقت نفسه يكتب في الصحافة، ويعمل بالسياسة مع أستاذه الأفغاني من خلال «الحزب الوطني الحر».

## عمله في الوقائع المصرية

وعندما نفي الأفغاني من مصر (١٨٧٩) عُزل محمد عبده من التدريس، وحددت إقامته بقريته، إلى أن استصدر له رئيس الوزراء رياض باشا عفوا خديويا وعينه محررا أول لصحيفة «الوقائع المصرية»، فطورها وأنشأ بها قسما غير رسمي نشر فيه نقدا فقهياً لأحكام القضاء من خلال ما سماه «التعليق على أحكام المحاكم»، وتولى في الوقت نفسه وظيفة تماثل وظيفة وزير الإعلام تتولى الإشراف على الصحافة وتوجيهها ومحاسبتها، وكانت «الوقائع المصرية» بمنزلة المدرسة الوظيفية الأولى التي عمل فيها الشيخ محمد عبده، وقد عمل فيها معه صديق عمره الشيخ عبد الكريم

سلمان، الذي ولد في العام الذي ولد فيه الشيخ محمد عبده، وإن كان قد توفي بعده، وقد عين مع الشيخ محمد عبده أيضًا (فيما بعد) ممثلين للحكومة في المجلس الأعلى للأزهر، وقد ساعد هذا الشيخ العظيم في كتابة تاريخ الأستاذ الإمام الذي دونه محمد رشيد رضا، وكان واحدا ممن حملوا نعشه عند وفاته. كما عمل معه في الوقائع كل من سعد زغلول، وإبراهيم الهلباوي.

### موقفه في الثورة العراقية

عندما بدأت نذر الثورة العراقية في الإعلان عن نفسها لم يكن الشيخ محمد عبده من أنصار الثورة، وإنما كان من أنصار الإصلاح التدريجي عن طريق التربية والتهديب والتعليم، وجعله هذا يختلف مع الحزب الجهادي العسكري الذي كان يقوده أحمد عرابي باشا (١٨٤١-١٩١١) حين تصاعدت نذر الثورة، لكنه فيما بعد مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١). انخرط تمامًا في الثورة العراقية ومثل جناح الاعتدال في قيادتها.

ولما اشتد الخلاف بين الخديو والوزارة، وحضرت السفن الأوربية إلى مياه الإسكندرية في مايو ١٨٨٢، وردت الوزارة على مذكرة إنجلترا وفرنسا برفض مطالبهما، وكان الوزراء وكبار الضباط مصرين على هذا الرفض ولو أدى الأمر إلى القتال، «اجتمع البارودي وكبار الضباط بقشلاق عابدين وأقسموا جميعا على المصحف أنه إذا حصلت حرب يكونون يدا واحدة في الدفاع عن البلاد، وكان الشيخ محمد عبده هو الواضع لصيغة اليمين، والمتولي تحليف كبار الضباط عليها».

ولما تحرش الإنجليز بمصر، وضربت الإسكندرية بقنابل الأسطول الإنجليزي في ١١ يونيو ١٨٨٢ بذل الشيخ محمد عبده جهودا كثيرة لتعضيد الثورة بالقلم واللسان والعمل، فدعا إلى التطوع في صفوف الجيش المدافع عن مصر، وإمداده بالإعانات والتبرعات، وكتب في «الوقائع المصرية» مقالات تفيض بلاغة ثورية.

### محاكمته

ولما هُزمت الثورة واحتل الإنجليز مصر (سبتمبر ١٨٨٢) سجن الشيخ محمد عبده وحوكم مع زعماء الثورة، ونفي إلى خارج البلاد ثلاث سنوات امتدت إلى ست سنوات، وقد بدأ منفاه ببيروت، ومنها لحق بالأفغاني في باريس، حيث عمل رئيسا لتحرير مجلة «العروة الوثقى» ونائبا للأفغاني في رئاسة التنظيم الذي تنطق باسمه هذه المجلة (جمعية العروة الوثقى) السرية، وتنقل سرا في كثير من البلاد.

## في بيروت

وبعد توقف المجلة وانقضاء مدة السنوات الثلاث المحكوم عليه بالنفي فيها، عاودته الرغبة في الإصلاح عن طريق مناهج التربية والتعليم، والتجديد الفكري وإصلاح مناهج التفكير لدى المسلمين، فعاد إلى بيروت وعمل معلما بالمدرسة السلطانية، ومفسرا للقرآن بالمسجد العمري، ومؤلفا، ومحققا لكتب التراث الإسلامي وتفرغ للاجتهاد والتجديد.

## عودته إلى مصر وعمله مستشارا بالاستئناف

وفي ١٨٨٩ نجحت مساعي أصدقائه فعاد إلى مصر بعد أن قضى ست سنوات في المنفى وتوابعه، لكن الخديو توفيق أبعده عن مهنته المحببة (التدريس) فاشتغل بالقضاء وسرعان ما أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف سنة ١٨٩١.

## مقارنته بأستاذه الأفغاني

يرى كثيرون أن محمد عبده كان امتدادا للأفغاني، ويرى آخرون أنه كان تطويرا للأفغاني، وقد ذكرنا رأي الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى القائل بأنه كان منه بمثابة أفلاطون من أرسطو، لكنه في كل الأحوال كان أبلغ منه أثرا وتأثيرا، وإذا جاز أن محمد عبده قد خلف أستاذه الأفغاني في بعض توجهاته لا فيها كلها، فإننا نرى أنه هذا لم يكن تعديلا لمسار بقدر ما كان وضعا لأولويات، ودليلنا على هذا بسيط وهو أن واحدا من تلامذة محمد عبده، وهو سعد زغلول، قد عاد في الوقت المناسب إلى ما كان الأفغاني يدعو إليه وهو الثورة السياسية، حين أتاحت الظروف إعادة ترتيب الأولويات.

## علاقته بمشايع الأزهر منذ تخرجه

ومن الواجب علينا، بما هو متوقع منا من ضبط للأحداث والمتواليات وتواليها، أن نشير إلى علاقة مشايخ الأزهر بالشيخ محمد عبده وعلاقته بهم. تخرج الشيخ محمد عبده في الأزهر (١٨٧٧) في عهد مشيخة الشيخ المهدي العباسي الذي كان قد تولى المشيخة (١٨٧٠)، وبقي فيها حتى (١٨٨٢)، حيث بدأت الثورة العربية وولت الشيخ شمس الدين الإنبائي فلما فشلت الثورة العرابية أعيد الشيخ المهدي العباسي إلى المشيخة في عام ١٨٨٢ نفسه، وبقي في المشيخة حتى ١٨٨٧ حيث استقال وخلفه الشيخ شمس الدين الإنبائي مرة ثانية، وبقي الشيخ الإنبائي حتى عام ١٨٩٦م حيث توفي فخلفه الشيخ حسونة النواوي، الذي كان وكيلًا للأزهر، وفي هذه

الفترة كان محمد عبده واحدا من لجنة خماسية عهد إليها بمساعدة الشيخ حسونة النواوي في تسيير أمور الأزهر.

### استقالة الشيخ حسونة النواوي الأولى من المنصبين

ثم كانت استقالة الشيخ حسونة النواوي الأولى في ١٨٩٩ وسببها معروف، وهو أن مستشار الحقانية الإنجليزي كان قد فكر في إلغاء المحاكم الشرعية وضمها إلى المحاكم الأهلية، (وهي الخطوة التي نفذها الرئيس عبد الناصر فيما بعد عندما استتب له الأمر بعد الخلاص من الأحزاب والحياة السياسية)، لكن الإنجليز لم يأخذوا بالاقتراح الذي طرحه عليهم مستشار الحقانية لأنهم كانوا يحترمون الرأي العام ومشاعر المسلمين، واقترح عليهم الناصحون لهم أن يفعلوا ذلك تدريجا، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين في المحكمة الشرعية العليا، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندي قاضي مصر التركي، ولا الشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية، وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه، ووقف الشيخ حسونة موقفا شديدا صلبا وصعد معارضته حتى انتهى الموقف باستقالته من المنصبين، وهي استقالته الأولى.

### كان يظن ان الخديو سيعينه خلفا للشيخ حسونة

لما خلا منصبا المشيخة والإفتاء باستقالة الشيخ حسونة النواوي من المنصبين ظن الشيخ محمد عبده أن من حقه أن يعينه الخديو عباس خلفا للشيخ حسونة في هذين المنصبين معا، وظنها فرصة مواتية كي يتم ما بدأه من إصلاح في عهد الشيخ حسونة النواوي.

### تعيينه مفتيا فقط واستمراره مع أربعة شيوخ

لكن الخديو أسرع وعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي (ابن عم الشيخ حسونة) للمشيخة (١٩٠٠)، والشيخ محمد عبده للإفتاء. ولم يمض نحو شهر حتى مات الشيخ القطب فعين الخديو مكانه الشيخ سليم البشري (١٩٠٠) شيخًا للأزهر، وعندئذ أحس الشيخ محمد عبده، فيما عبر به لخلصائه، أن آماله في الإصلاح الأزهري قد قضى عليها بالانكماش والتراجع، ذلك أنه لم يكن له من الدلال على الشيخ البشري مثلما كان له على الشيخ حسونة، وكان يرى أن الشيخ البشري لا يؤمن بالإصلاح الذي ينادي به.

ومن الإنصاف أن نقول : إن الشيخ محمد عبده كان قد أصبح مفرط الحساسية تجاه الآخرين من أصحاب السلطة في الأزهر وذلك بسبب كثرة ما لقيه من نزاعات ، ويبدو لنا أنه لم يكن له مبرر قوي في موقفه من الشيخ سليم البشري ، ففي ظل مشيخة هذا العالم وبعد ٧ سنوات من وفاة الشيخ محمد عبده نفذ الشيخ محمد شاکر من خلال قانون «الأزهر» كثيرًا من الأفكار التي نادى بها الشيخ محمد عبده.

### شيوخ الأزهر الذين عمل معهم وهو مفت

هكذا فإن الشيخ محمد عبده عمل وهو مفت في وجود الشيخ عبد الرحمن النواوي لمدة شهر واحد (١٩٠٠)، ثم الشيخ سليم البشري (١٩٠٠ - ١٩٠٢)، فلما استقال الشيخ البشري في ١٩٠٢ عين الخديو عباس حلمي ثالث شيخ للأزهر عمل محمد عبده بالموازاة له مفتيا وهو نقيب الأشراف الشيخ على الببلاوي الذي ولي المشيخة (١٩٠٢ - ١٩٠٥)، فلما استقال في عام ١٩٠٥ عين الخديو عباس الشيخ عبد الرحمن الشربيني، وكان هذا هو رابع شيخ للأزهر في عهد تولي الشيخ محمد عبده الإفتاء، وكان الشيخ الشربيني ممن لا يستطيع الشيخ محمد عبده العمل معهم ، أو هكذا كان يتصور بسبب ما شخصناه من تنامي عنصر الحساسية المفرطة في تعاملاته، وهكذا فإنه سارع بالاستقالة من مجلس الأزهر الأعلى، وتورد الأدبيات المتاحة قصة هذه الاستقالة على نحو يكاد يكون واحدا وترجع السبب فيها إلى أن الخديو عباس حلمي خطب في حفلة الإنعام بالخُلعة على الشيخ عبد الرحمن الشربيني خطبة تدل على ضيقه الشديد من الشيخ محمد عبده.

### اختياره عضوا دائما في مجلس شورى القوانين

شغل الشيخ محمد عبده منصب الإفتاء ست سنوات (١٨٩٩ - ١٩٠٥) أتاحت له فرصة ذهبية لتنفيذ بعض الإصلاحات التي كان ينادي بها، ومع أن هذا المنصب شغله كثيرا «وربما تماما» عن أن يعطي للعلم والتأليف والمراجعة بعض ما كان جديرا به لو أنه تفرغ للعلم، فإن المنصب دعم حضور الشيخ محمد عبده وأضفى عليه وجاهة دينية ممتازة، وإن كان هو نفسه قد خلع على المنصب بشخصيته إجلالا واحتراما، وزاد في ذلك تعيينه في السنة نفسها عضوا دائما في مجلس شورى القوانين.

### قيمه كفقيه و كاستاذ للفقه

كان الأستاذ الإمام محمد عبده فقيها قادرا على تقديم أحكام الشريعة لأهل عصره وللصور التالية، ولا تزال آراؤه في الأحوال الشخصية تمثل فهما رائعا للإسلام وشريعته، وعلى سبيل المثال فقد كان محمد عبده ينظر إلى تعدد الزوجات في إطار الزمن الذي أتى فيه التشريع منبها إلى جوهر ما نص عليه القرآن في ذلك الشأن، وكان ينبه إلى أن نظام التعدد ارتبط في نشأته بزيادة أعداد النساء عن الرجال في المجتمعات الحربية القديمة، ومنها المجتمع العربي الجاهلي، وإلى أن الإسلام لم يقر عادات الجاهلية من هذا النظام، «فقد عمد إلى إصلاح هذا النظام بإلغائه تدريجيا حيث كان مباحا بلا حدود فوقف به الإسلام عند حد الأربعة، وضيقه باشتراط العدل، وهو أمر نادر الحدوث لا يصلح أن يتخذ قاعدة، مما يعني الاكتفاء بزوجة واحدة إلا لضرورة قصوى».

وقد ناقش الشيخ محمد عبده فكرة التعدد من حيث فائدتها في زمانه، مستندا في رأيه إلى قاعدة أصولية جميلة تقول: «إذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تلحقه فيما قبله، فلا شك في تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة»، وهكذا فإنه ذهب إلى القول بأنه إذا كان تعدد الزوجات في صدر الإسلام مفيدا، فإنه يجلب اليوم المضار للأسرة وللأمة، وإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تلحقه فيما قبله، فلا شك في تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة.

### سلطته المتعدية لحدود الأوطان

كان الشيخ محمد عبده مصلحا حقيقيا في عصر بدأ يدرك ضرورة الإصلاح ويبحث عن وسائله، ومن خلال مجلة «المنار» التي أصدرها تلميذه محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) بلغت دعوته في التجديد والإصلاح كل أرجاء العالم الإسلامي، وقد شملت هذه الدعوة جوانب متعددة من الفكر الإسلامي وتطبيقاته، فقد نشر تفسيره لما فسر من القرآن الكريم، كما أنه جدد بها علم الكلام الإسلامي «رسالة التوحيد»، كما أنه اقتحم مشكلات عصره الاقتصادية والاجتماعية بعقلية فقهية قادرة على التجديد والفهم، وتجاوز جمود أهل التقليد، ورفض تبعية المنبهرين بالحضارة الغربية .

### هل لا تزال أفكار الشيخ محمد عبده ملهمة؟

مثل الشيخ محمد عبده ما يسمى بالوسطية الإسلامية أروع تمثيل، وصاغ في مرحلة مبكرة نوعاً من المعاصرة الإسلامية المتميزة التي استندت إلى الأصالة المتميزة، وكما وصف الدكتور تشارلز آدمز ١٨٨٣-١٩٤٨ أداءه فإنه كان يتميز بالميل إلى التسامح، واستقلال الرأي، والبعد عن التقليد، والملائمة فيه بين روح الإسلام، ومطالب المدنية الحديثة.

### بعدها أصبح مفتياً لغير المصريين ولغير المسلمين

ولم يكن الأستاذ الإمام مفتياً للديار المصرية وحدها، وإنما كان مفتياً لبلاد الإسلام جميعاً بمن فيهم سكان هذه البلاد من غير معتقي الإسلام، وكانت دار الإفتاء في عهده تمثل مرجعية للأمة الإسلامية كلها، وكان أدائه لوظيفته نوعاً من توكيد فكرة الجامعة الإسلامية، وضرورة الخلافة حتى لو أنه هو نفسه لم يكن من الداعين إلى استمرار الخلافة على نحو ما آلت إليه، وإنما كان حريصاً على تطوير دورها والاتجاه بها وجهة روحية خالص تمكن من تحقيق الفتح لأمة الإسلام.

### شجاعته الفقهية والفكرية في الاستعانة بلورد كرومر

استعان الأستاذ الإمام على الخديو عباس حلمي بلورد كرومر، وتمكن بهذه الاستعانة من إقرار فكرة الاستعانة بالعدل (حتى إن كان إنجليزياً) على السياسي المضطر نفسه إلى الجور (حتى وإن كان هو الحاكم الوطني)، وبدأ بهذا السلوك طريفاً ظل يحكم سياسة مصر في تعاملها مع القوي الدولية حتى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي كان بمثابة أقصى النقاط ارتفاعاً في هذا المنحنى.. وهكذا تمكن محمد عبده مبكراً من هزيمة ما يمكن تسميته بالأوتوقراطية الخديوية على نحو أو آخر.

وقد واكب هذا التوجه نشوء فكرة الإفادة من أبناء البلد في إدارة شؤونها على نحو معارض إلى حد معقول لولي الأمر، وهو اتجاه كانت بريطانيا قادرة عليه وعلى توظيفه، ولكنها لم تكن تحلم بأن تجد له سنداً من رجل دين إسلامي من طبقة محمد عبده، ومن ثم فقد بدأت طموحات كرومر في التعاون مع فئة أطلق عليهم اسم «العقلاء»، وهم الذين أسسوا حزب الأمة وأمنوا بالمبادئ والنظريات الأوروبية الليبرالية، ومن ثم تبلور إيمانهم بالتأني والحيطنة والعمل للوطن بمدارة الاحتلال مادام أنه لم يكن من الممكن زحزحته بالقوة.

## فكرة حق الأمة على الحاكم

كان الأستاذ الإمام محمد عبده معتزاً أيما اعتزاز بدوره في توعيته للأمة بمعرفة حقها على حكامها ومقاومة طغيان هؤلاء الحكام :

«... وهناك أمر آخر كنت من دعائه، والناس جميعاً في عمى عنه، رغم أنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذلّ إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة».

«نعم كنت من دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حكامها، وهي التي لم يخطر لها هذا الخاطر منذ مدة تزيد على عشرين قرناً، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، لأنه لا يردّه عن خطئه، ولا يوقف طغيان شهوته، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل».

## اتصاله بالإنجليز لتقديم صورة مختلفة عن تصويرهم للثورة العربية

ومن الحق أن نشير هنا إلى ما فصلنا القول فيه في كتابنا عن الأستاذ الإمام من أن جهد الشيخ محمد عبده لم يتوقف على عمله ومشاركته في الثورة العربية وما بعدها، لكنه في أثناء نفيه ندب نفسه لما ندب خلفاؤه أنفسهم له من الاتصال بالمحتل الإنجليزي في عقر داره، وقد اتصل الشيخ محمد عبده وهو في المنفى بالبرلمان الإنجليزي ووجوه المجتمع الإنجليزي ، والتقى بعدد من رجال السياسة، ورجال الصحافة، يطلب الجلاء والوفاء بالوعود، ويوضح حقيقة الحال في الثورة العربية، ودسائس الأوروبيين فيها، وكراهية الشعب للحكم الأجنبي، وأنهم يفضلون استبداد الحاكم من أهلهم على الأجنبي من غيرهم مهما كانت سيرته، واقترح عليه بعض من اقتنعوا برأيه من الإنجليز أن يهددهم بأن المصريين سوف لا يدفعون الضرائب، وسيجعلون حكم الأجانب مستحيلاً، سواء كانوا إنجليزاً أم فرنسيين.

## إدراكه لأثر قيم الإسلام في رفض الأمة الاستسلام لغيرها

ظل الأستاذ الإمام يقرر أن انتشار الأمية في مصر ، لم يفقد أهلها الشعور الطبيعي برغبتها أن تحكم نفسها، والإسلام الذي بين جوانحها يحرم عليها الاستسلام لغيرها.



## كيف استفادت ثورة ١٩١٩ من أفكاره

نكرر ما نقول به من أن تلك الثورة وجدت في زعيمها وهو تلميذ محمد عبده النابه قدرات متميزة صقلتها تجربة محمد عبده نفسه على مدى تاريخه!! فقد نجح سعد زغلول في أن يستعير البناء الفكري لمحمد عبده مع وضع حجر مكان حجر كلما احتاج استكمال البناء لهدف آخر، ولهذا نجح سعد زغلول بأكثر من نجاح العلمانيين والمتدينين المحافظين، وبذلك شكل الوفد المصري على يد سعد زغلول (والنحاس من بعده) مجموعة وطنية تقف في منتصف الطريق بين طرفين يبدوان متناقضين وهما التقليديون المحافظون، والعلمانيون المتطرفون، أما التقليديون فقد عجزوا عن فهم العالم الحديث، أو السيطرة عليه على نحو ما حدث مثلاً مع الحزب الوطني، مما حتم خروجهم من المسرح السياسي.

## أروع فقرة أبدعها مفكر في تلخيص تاريخنا الحديث

كثيراً ما وُجّه إلينا السؤال عن أعظم المؤرخين المصريين المحدثين، وكنت دائماً أقول إنه الشيخ محمد عبده وقد شجعنا هذا الإلحاح في السؤال والثبات في الإجابة على أن نخصّص للحديث عن هذا المعنى أحد أبواب كتابنا عن الأستاذ، وهو واحد من كتبنا التي لقيت القبول والذيع.

و في مقامنا هذا فإننا نعتقد أنه لا بد لنا من اطلاع القارئ على فقرات عبقرية صورّ بها الشيخ محمد عبده تاريخ مصر الحديث من حيث "الروح".

نعم، فإن حديث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذه الفقرات تخطى ما نعرفه من الحديث عن القوى الاجتماعية والطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي ليصل إلى ما هو أهم من هذا، وهو الحديث عن الروح التي لا بد منها للحياة الإنسانية وللتاريخ الإنساني.

## النظرة ذات الصبغة البيولوجية

كانت هذه النظرة ذات الصبغة البيولوجية (أو الأحيائية بهمزة على الألف نسبة إلى علم الأحياء أو علم الحياة) للتاريخ السياسي من النعم التي أنعم الله بها على بصيرة الشيخ محمد عبده، في تناول للتاريخ، فإذا ما أضفنا إليها إشراق العبارة التي يُصور بها ما يريد تصويره من المعاني وجدنا الأستاذ الإمام وقد تفوّق على كلّ المؤرخين بعده بامتلاك أدواتهم وأدوات أخرى مع أدواتهم.

لنقرأ هذه الفقرة التي كتبها الشيخ محمد عبده عن مجمل تاريخ محمد علي ، وقد كتبها في عصر الأسرة العلوية ، وإذا كان لنا أن نثني على شجاعته في كتابة أحكامه التاريخية على هذا النحو فلا بد لنا أيضا من أن نثني على رحابة صدر عهد الخديو عباس حلمي الثاني الذي سمح بأن يتردد هذا الكلام عن جده ورأس أسرته الحاكمة، وإذا كان لا بد لبعض العرب الذين لا يُحبون الأستاذ الشيخ محمد عبده أن يقولوا إن هذه الشجاعة كانت بفضل علاقته الحسنة بالبريطانيين أو بلورد كرومر فلا مانع عندنا من ان نشكر هؤلاء ايضاً ، وهذه هي الفقرة :

### **وصفه لمحمد علي : لم يستطع أن يُحيي و استطاع أن يُميت**

" لغط الناس هذه الأيام في محمد علي، وماله من الآثار في مصر، والأفضل على أهلها، غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي، وما كانت تصير البلاد إليه لو بقيت. "

" ما الذي صنعه محمد علي؟ لم يستطع أن يُحيي ولكن استطاع أن يُميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً، فيمحقه، وهكذا، ووجّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع فيها رأساً يستقر فيه ضمير «أنا»!!

### **أفقد المواطنين الشجاعة والاستقلال**

"واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارا، حتى فسد بأس الأهلين وزالت ملكة الشجاعة فيهم. فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة، من رأي و عزيمة واستقلال نفس، ليُصير البلاد المصرية جميعها إقطاعا واحدا له ولأولاده، بعد أن كانت إقطاعات لأمرء عدة.

### **باع البلد لإرادة الأوربيين لغرض قصير الأمد**

"ماذا صنع بعد ذلك؟ اشتربت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرّم منها، وانقلب الوطني غريبا في داره.

## وظف العلم و البعثات لمصلحة وقتية فقط

نعم عني محمد علي بالطب؛ لأجل الجيش، وعنى بالهندسة، لأجل الري، ليستغل إقطاعه الكبير.

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا فهل أطلق لهم الحرية أن يبتثوا في البلاد ما استفادوا؟ كلا! ولكنه اتخذهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها إرادة فيما تصنع!

## لم يشرك المواطنين في الحكم

هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأيا في الحكومة، في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم؟ بل كان رجال الحكومة إما من الأرنبوط أو الجراكسة أو الأرمن المورلية.

## علم المصريين الهرب من الجندية وكره الجيش

"هل علم المصريين حب الجندية والافتخار بها؟ لا! بل علمهم الهرب منها بعد أن كانوا يحاربون لا يبالون بالموت".

"ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا إلى رتبة البكباشي؟ هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه؟ هل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه فيقول هذا جيشي وأسطولي؟ كلا! لم يكن شيء من ذلك، فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظلمه.

## سياسة محمد علي جعلت المصريين لا يقاومون الإنجليز

"فما أثر ذلك في حياة المصريين؟ أثر كله شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت. ظهر ذلك حينما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي، دخل الإنجليز مصر بأسهل ما يدخل دامر على قوم، ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين إلى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير".

## الباب الثاني : وزيران مجددان

### الفصل الثالث : أحمد حشمت باشا

#### أول وزراء المعارف اهتماما بالتعليم المتخصص

أحمد حشمت باشا (١٨٥٨ - ١٩٢٦) واحد من أهم وزراء التعليم في مصر الحديثة، وهو في رأيي ثانيهم في الإنجاز و العظمة بعد سلفه المباشر سعد زغول، وإنجازاته في التعليم (على نحو ما نراها) تجعله سابقا بمراحل علي عدد من الوزراء العظماء ممن بولغ في تقدير قيمة أدائهم في هذه الوزارة. ومن الطريف أنه ولد قبل سعد زغول بعام و توفي أيضا قبله بعام وإن كان سعد زغول سابقا عليه في كثير من متاع الدنيا والسياسة .

وبالإضافة الى دوره الفذ كوزير للمعارف فقد كان نائبا لرئيس لجنة الثلاثين التي وضعت دستور ١٩٢٣ .

وقد كان أحمد حشمت باشا على الصعيد الثقافي العام من أصدقاء الشيخ محمد عبده، كما كان صديقا وراعيا لشاعر النيل حافظ إبراهيم، وهو الذي عينه وكيلا لدار الكتب، ولحافظ قصيدة شهيرة في رثائه سنحاول قراءتها في هذا الفصل .

#### نشأته

ولد أحمد حشمت باشا في ٢٥ أغسطس ١٨٥٨ في كفر المصيلحة في المنوفية، وهي قرية الرئيس مبارك، وأصبح بمكانته الفكرية والحكومية رأس عائلة من العائلات الوطنية التي مارس كثير من أفرادها السياسة ووصلوا إلي مواقع متقدمة، وكان منهم : عبد العزيز باشا فهمي، وعبدالرحمن عمر، وعبد المجيد عمر، وعبدالخالق الشناوي، وغيرهم من أعلام الوطن.

ومن الطريف أن اسمه أحمد حشمت اسم مركب، و والده هو الشيخ حجازي حسين عمر ، وقد تنوع استخدام هذه العائلة للألقاب ، ولهذا فإننا نجد نسب عبد العزيز فهمي باشا يضم لقب حجازي ، على حين ينتهي لقب الوزيرين بعمر .

## تكوينه العلمي و وظائفه

تلقى أحمد حشمت باشا تعليمه في قريته وفي القاهرة، ودرس الحقوق في مصر وتخرج فيها حين كان اسمها لا يزال : مدرسة الإدارة ، وابتعث إلى فرنسا، فدرس كعادة المصريين في مونبلييه لا في باريس ، وتدرج بعد عودته في مناصب النيابة والقضاء، وكان مندوبا لقسم قضايا المالية والداخلية و عضوا في تحقيق جنایات الإسكندرية و عضوا او رئيسا للجنة بيع أملاك العربيين ، ورئيسا لنيابة محكمة الإسكندرية ١٨٨٤ ثم اختير ١٨٩٤ لتولي منصب المدير (ما يوازي المحافظ حاليا) وأثبت نجاحا في ثلاث مديريات تولى أمرها علي التعاقب وهي: جرجا (سوهاج حاليا)، وأسيوط ، وفيها منح الباشوية ، والدقهلية، ثم أحيل للمعاش وهو في الخامسة والأربعين من عمره ١٩٠٣

## تراثه النظري في التربية

وضع أحمد حشمت باشا أفكاره النظرية عن التعليم في كتابين مهمين، الأول بالفرنسية «التربية والتعليم»، والثاني بالعربية «عن التعليم في مصر»، كما كتب كتابين آخرين «من قديم الزمان» و«إلى هذا الأوان».

## استكمال جهود سعد زغلول في وزارة المعارف

كان أحمد حشمت باشا هو من أتم ما بدأه سعد زغلول من تعميم التدريس باللغة العربية و إليه يرجع الفضل في إدخال تدريس كثير من العلوم الحديثة في مناهج وزارة المعارف، و منها علم الصحة ، والتدبير المنزلي فضلا عن الاقتصاد .

## إسهاماته التربوية الحضارية

كان أحمد حشمت باشا صاحب مجموعة أوليات مهمة فهو أول من بدأ إنشاء مدارس التعليم النسوي، وهو أول من قرر إنشاء رياض الأطفال، وهو أول من سمح بنظام الملحق، وقد أباحه للذين رسبوا في مادة واحدة.

## هو من أقنع أحمد زكي باشا بوضع علامات الترقية العربية

كان أحمد حشمت باشا هو الذي طلب من العلامة الموسوعي العظيم أحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار وضع ما عرف بعد ذلك بعلامات الترقية العربية ، وقد ذكر هذا أحمد زكي باشا نفسه في كتابه ، ولولاه ما عرف فضل حشمت باشا ، كما أنه عمل على إدخال التشكيل في الكتب المدرسية

### ترجمة أفضل الكتب المدرسية المتاحة

كان أحمد حشمت باشا من سعة الأفق بحيث إنه كان يعهد إلي أفضل المترجمين بترجمة أفضل الكتب المدرسية المتاحة، ثم يعهد إلي أفضل الأدباء بصياغتها في أفضل عبارة، ومن الطريف أن الشاعر حافظ إبراهيم هو الذي تولى تحرير كتاب الاقتصاد. وقد كان الصديق الكريم الدكتور محمود محيي الدين معجبا غاية الإعجاب بهذا الدور الذي قام به أحمد حشمت باشا وسجل هذا الإعجاب كتابة في مقدمة كتبها لطبعة جديدة من ذلك الكتاب الذي طبع في أول القرن العشرين .

### طبع ترجمة البؤساء على نفقته

فيما قبل هذا فإن أحمد حشمت باشا كلف الشاعر حافظ إبراهيم بترجمة كتاب فيكتور هوغو البؤساء و طبعه على نفقته الخاصة ١٩٠٣

### إنشاء نواة كليتي التجارة والزراعة

بذل أحمد حشمت باشا في تطوير التعليم الفني جهدا لم ينافس فيه أحد، وهو الذي أنشأ أول مدرسة أهلية للصناعة في الإسكندرية. كذلك كان هو المنشئ الحقيقي لكليتي التجارة والزراعة، فقد أنشأ مدرسة التجارة العليا (كلية فيما بعد)، وذلك بأن حول مدرسة الزراعة المتوسطة بالجيزة إلي مدرسة عليا (كلية فيما بعد)، كما أنشأ مدرسة متوسطة للمحاسبة والتجارة، وأنشأ مدرسة للزراعة المتوسطة في مشتهر (تحولت فيما بعد هي الأخرى إلي كلية).

### اهتمامه بدار الكتب وتحقيق التراث

اهتم أحمد حشمت باشا بدار الكتب المصرية واستصدر أمرا عاليا يقضي بإصلاحها، وأن تكون تابعة لوزارة المعارف في إدارتها، ولوزارة المالية في مراجعة حسابها، وأن يؤلف لها مجلس أعلى يعقد جلساته في مقر الدار برئاسة وزير المعارف، وقد سارع بالتنفيذ فألف ذلك المجلس ورأسه هو، وكان من باكورة إنجازاته في دار الكتب أن طبع خمسة كتب من نفائس المخطوطات العربية، وهي:

- صبح الأعشى للقلقشندي
- الإحكام في أحوال الأحكام للأمدي

- خصائص العربية لابن جني وهو الكتاب المشهور باسم خصائص ابن جني ، (ومن الطريف أن بعض الناسخين كتبوا اسم هذا الكتاب الأشهر في بعض المراجع باسم خصائص العربي لابن حسن )
- الطراز في حقائق الإعجاز لأمير المؤمنين أبي حمزة اليمني
- الاعتصام بالكتاب والسنة للشاطبي.

### مسئولية المحليات

كان أحمد حشمت باشا هو وزير المعارف الذي جعل المديرية ومجالستها مسئولة عن التعليم الأولي والفني، والكتاتيب، ثم عن مدارس المعلمين الأولية أيضا مع حفظ حق وزارة المعارف في التفتيش والتوجيه، وهو وضع تنموي وتقديمي متميز ومن الإنصاف لأنفسنا أن نعترف بأننا لم نستطع أن نصل إليه مع كل جهودنا الراهنة طيلة العقدين الأخيرين من الزمان ، فقد كانت المحليات في أول القرن العشرين تتمتع بسلطات أوسع في ترقية الخدمات التربوية والنهوض بها على نحو واسع لا تتمتع به المحليات في القرن الحادي والعشرين.

### مناصبه الوزارية

شارك أحمد حشمت باشا في ثلاث وزارات مع ثلاثة رؤساء وزارات هم بطرس غالي و محمد سعيد ويحي إبراهيم ، وتولي أربع وزارات هي المالية والمعارف والخارجية والأوقاف .

بدأ أحمد حشمت باشا مناصبه الوزارية بتولي وزارة المالية طيلة وزارة بطرس غالي باشا (نوفمبر ١٩٠٨ - فبراير ١٩١٠)، ثم تولى وزارة المعارف في الوزارة التالية وهي وزارة محمد سعيد باشا من بدايتها في فبراير ١٩١٠ وحتى ٢٠ نوفمبر ١٩١٣ وكان توليه للمعارف خلفا لسعد زغلول الذي تولى الحقانية خلفا لرشدي باشا ، وفي نوفمبر ١٩١٣ تولى الأوقاف إلى نهاية عهد الوزارة (أبريل ١٩١٤).

لم يشترك أحمد حشمت باشا في وزارات رشدي باشا الأربع، ولا في الوزارات الإدارية الثلاث التي تولت الحكم في أثناء ثورة ١٩١٩، لكنه عاد وشارك في وزارة يحيي إبراهيم باشا وتولى وزارة الخارجية في بدايتها (مارس ١٩٢٣) وحتى أغسطس ١٩٢٣، ثم تولى وزارة المالية حتى نهاية عهد الوزارة في يناير ١٩٢٤.

## نائب الرئيس لجنة دستور ١٩٢٣

اختير أحمد حشمت نائبا لرئيس لجنة وضع دستور ١٩٢٣، نائبا لحسين رشدي باشا، وقد وصف الدكتور محمد حسين هيكل باشا جهده في هذه اللجنة بقوله: «كان له من طيبة القلب ومن الاتصال بالأعضاء ما جعل توجيه المناقشة بعد سفر رشدي باشا أكثر يسرا، وإن لم يمنع يسرها من احتدامها في بعض الأحيان احتداما عنيفا».

## قصيدة حافظ إبراهيم في رثائه

تولى الشاعر حافظ إبراهيم رثاء أحمد حشمت باشا بقصيدة من ٣٤ بيتا، لم تنشر في الطبعة الأولى من ديوان حافظ، لكنها نشرت في الطبعة الثانية. وكان المجمع العظيم الأستاذ إبراهيم التريزي قد صوب (في تعقيب له بمجلة الرسالة في ٤ أكتوبر ١٩٤٨) ما كان المجمع الشهير الأستاذ احمد حافظ عوض قد رواه في مجلة المصور من أن الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده هو الذي الحق حافظ إبراهيم بالعمل في دار الكتب وقال الأستاذ التريزي الذي كان لا يزال طالبا في معهد الزقازيق الثانوي الأزهري انه عين في ١٤ مارس سنة ١٩١١ بعد وفاة الشيخ محمد عبد بسنوات ، وقد عينه أحمد حشمت باشا ناظر المعارف حينئذ.

## مشاعر حافظ إبراهيم تجاه فقده

يبدأ الشاعر حافظ إبراهيم بداية قوية يصور فيها سمعه وقد فقده ، بسبب النبا الرهيب الذي كانت له تأثيرات قاسية فقد حبس اللسان وأفقد السمع وأطلق الدمع ، وسرعان ما ينتقل الشاعر العبقري في البيت الثاني إلى الحديث عن فضل حشمت باشا عليه وفي البيت الثالث يكرم الباشا المرثي بأن يقرن فضله بفضل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم يبدأ الشاعر حافظ إبراهيم في الرثاء لحال نفسه بعد فقده السند العظيم ، وهو يصف حاله وصفا حسيا مؤثرا كعادته ، فيد العلام مشلولة ، و الأنف مجدوعة ، و المروءة مقفرة ، والندى مستوحش:

١. حَبَسَ اللِّسَانَ وَأَطْلَقَ الدَّمْعَا
  ٢. لَكَ مِنَّةٌ قَدْ طَوَّقَتْ عُنُقِي
  ٣. مَاتَ الإِمَامُ وَكَانَ لِي كَنَفًا
  ٤. فَلَيْشِمَتِ الحُسَّادُ فِي رَجُلٍ
  ٥. وَلَتَحْمِلِ الأَيَّامُ حَمَلَتَهَا
- نَاعَ أَصَمَّ بِنَعْيِكَ السَّمْعَا  
مَا إِنْ أَرِيدُ لِطَوَّقِهَا نَزْعَا  
وَقَضَيْتَ أَنْتَ وَكُنْتَ لِي دِرْعَا  
أَمَسْتَ مُنَاهُ وَأَصْبَحْتَ صَرْعَا  
غَاضَ المَعِينُ وَأَجْدَبَ المَرْعَا



٦. إِنِّي أَرَى مِنْ بَعْدِهِ شَلَالاً      بِيَدِ الْعُلَا وَبِأَنْفِهَا جَدَعَا  
٧. وَأَرَى النَّدَى مُسْتَوْجِشاً قَلِقاً      وَأَرَى الْمُرُوَّةَ أَقْفَرَتْ رَبَعَا

#### وصف شاعر النيل لمناقب حشمت باشا

يصف الشاعر حافظ إبراهيم بعض مناقب حشمت باشا بطريقته العبقرية في الوصف الشعري المبرق الخاطف الحافل بالكنايات التقليدية و المجازات المستحدثة ، فيتطرق بإشارات مضيئة إلى جميله ،ومحامده المزدوجة ،وكرمه:

٨. قَدْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَبُو حَسَنِ      يُولِي الْجَمِيلَ وَيُحْسِنُ الصُّنْعَا  
٩. إِنْ جَاءَ ذُو جَاهٍ بِمَحْمَدَةٍ      وَتَرَأَ شَأَهُ بِمِثْلِهَا شَفْعَا  
١٠. فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَنْامِلِهِ      تَنَدَى حَسِبْتَ بِكَفِّهِ نَبْعَا

#### فخر الشاعر بأنه من صنائع حشمت باشا

ثم يلتفت الشاعر حافظ إبراهيم بطريقته الذكية ، فيتوجه إلى مستمع له بالرجاء أن يسأله ليعترف له بأنه من صنائع حشمت باشا الذي امتد نفعه إلى المعارف واللغة العربية ، ويردف هذا بأكثر أبيات القصيدة تعبيراً عن وفائه للرجل وهو البيت الثالث عشر الذي يعبر بنفس فولكلوري عن امتنانه العميق لحشمت باشا :

١١. سَلَنِي فَإِنِّي مِنْ صَنَائِعِهِ      وَسَلِ الْمَعَارِفَ كَمْ جَنَّتْ نَفْعَا  
١٢. قَدْ أَخَصَّبْتَ أُمَّ اللُّغَاتِ بِهِ      خَصْباً أَدْرَ لِأَهْلِهَا الضَّرْعَا  
١٣. تَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ يُقَالَ أَتَى      بِدَعَا لَطْفَتْ بِقَبْرِهِ سَبْعَا

#### ضيق حافظ بالحياة بعد فقدانه للأصدقاء

وينتقل الشاعر حافظ إبراهيم كعادته للحديث عن ضيقه بالحياة بعد فقدانه للأصدقاء وعونهم ومواجهته الشر وحيدا وإحساسه بنفاق من يعاملونه ويصل إلى وصف النفاق بطريقة عبقرية بديعية في البيت السابع عشر

١٤. قَدْ ضِيقْتُ ذُرْعاً بِالحَيَاةِ وَمَنْ      يَفْقِدُ أَجِبَّتَهُ يَضِيقُ ذُرْعَا  
١٥. وَغَدَوْتُ فِي بَلَدٍ تَكُنُّ قَنِي      فِيهِ الشُّرُورُ وَلَا أَرَى دَفْعَا  
١٦. كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لِي يُحَاسِنُنِي      وَكَأَنَّ تَحْتَ ثِيَابِهِ أَفْعَى  
١٧. يَسْعَى فَيُخْفِي لِيْنُ مَلَمَسِهِ      عَنِّي مَسَارِبَ حَيَّةٍ تَسْعَى

## فقدانه دعم حشمت باشا

ويحمد الشاعر حافظ إبراهيم الله الذي أنقذه من محاولات أعدائه هدمه ، بل و زاد في رفعته لكنه سرعان ما يقرر في البيت التاسع عشر أنه أصبح لولا قدرته البيانية منفردا في مواجهة الجمع من أعدائه الذين يريدون تحطيم قلمه

١٨. كَمْ حَاوَلْتُ هَدْمِي مَعَاوِلُهُمْ وَأَبَى الْإِلَهَ فَزَادَنِي رَفَعَا  
١٩. أَصَبَحْتُ قَرْدًا لَا يُنَاصِرُنِي غَيْرُ الْبَيَانِ وَأَصْبَحُوا جَمَعَا  
٢٠. وَمَنَاهُمْ أَنْ يَحْطِمُوا بِيَدِي قَلَمًا أَثَارَ عَلَيْهِمُ النَّقْعَا

ويميضي الشاعر حافظ إبراهيم ليؤكد على هذا المعنى ملتفتا إلى رثاء حشمت باشا بطريقة غير مباشرة فهو الذي كان يرعاه و يدفع عنه الكيد والمصائب و يقيله و يرفع من قدر و سطاته لمن يستحقونها بينما هو بطبعه الحر ضجر من نقد من لا يرقون إلى أقل نسبة له:

٢١. وَلَرُبَّ حُرٍّ عَابَهُ نَقْرٌ لَا يَصْلُحُونَ لِنَعْلِهِ شِسْعَا  
٢٢. مَنْ ذَا يُوَاسِينِي وَيَكْلَأُنِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَرَعِي  
٢٣. لَا جَاءَ يَحْمِينِي وَلَا مَدَدٌ عَنِّي يَرُدُّ الْكَيْدَ وَالْقَدْعَا  
٢٤. بِكَ كُنْتُ أَدْفَعُ كُلَّ عَادِيَةٍ وَأَجِيبُ فِي الْجُلَى إِذَا أَدْعَى  
٢٥. وَأَقِيلُ عَثْرَةَ كُلِّ مُبْتَلِسٍ وَأَفِي الْحُقُوقَ وَأُنَجِّحُ الْمَسْعَى

## ألم الفقد و الفراق

يعود الشاعر حافظ إبراهيم ليتحدث عن اللحظة التي بلغه فيها نعي حشمت باشا و ود لو أنه كان هو من نعي ، كما يعود لتعداد مناقب حشمت باشا الذي لم يفرط في وده له ولا وصله وهو يخاطبه بأنه دوحه البر ذات الفروع و منارة الفضل ناشرة النور و مثابة الرزق الذي لا يمتنع :

٢٦. حَتَّى نَعَى النَّاعِي أَبَا حَسَنِ فَوَدَدْتُ لَوْ كُنْتُ الَّذِي يُنْعَى  
٢٧. غِيظَ الْعِدَاءِ فَحَاوَلُوا سَفْهًا مِنْهُمْ لِحَبْلِ وِدَانِنَا قَطْعَا  
٢٨. رَامُوا لَهُ بَتًّا وَقَدْ حَمَلُوا ظُلْمًا فَكَانَ لِوَصْلِهِ أَدْعَى  
٢٩. يَا دَوْحَةَ لِلْبِرِّ قَدْ نَشَرْتَ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ لَهَا فَرْعَا  
٣٠. وَمَنَارَةَ لِلْفُضْلِ قَدْ رُفِعَتْ فَوْقَ الْكِنَانَةِ نَوْرُهَا شَعَا  
٣١. وَمَثَابَةَ لِلرِّزْقِ أَحْمَدُهَا مَا رَدَّ مِسْكِينًا وَلَا دَعَا

## الختام المسبوك

و يختم الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته الرائعة بثلاثة أبيات محبوكة الصياغة شديدة الأسر كما يقولون تعترف بالعجز وتؤمل في الوفاء لكنها مع هذا تعتذر بهول الأسى و تصدع القلب :

٣٢. إِنِّي رَتَيْتُكَ وَالْأَسَى جَلُّ  
وَالْحُزْنَ يَصَدِّعُ مُهَجَّتِي صَدْعَا  
٣٣. لَا غَرَوْا إِنْ قَصَّرْتُ فِيكَ فَقَدْ  
جَلَّ الْمُصَابُ وَجَاوَزَ الْوُسْعَا  
34. سَأْفِيكَ حَقَّكَ فِي الرِّثَاءِ كَمَا  
تَرْضَى إِذَا لَمْ تُقَدِّرِ الرَّجْعَى

## وفاته

توفي أحمد حشمت باشا في الثامن من مايو ١٩٢٦، واحتفل بدفنه في اليوم التالي ، واطلق اسمه على شارع جميل في الزمالك يوازي في اتجاهه كورنيشي النيل والشوارع الستة التي أطلقت عليها أسماء الشاعر عزيز أباطة ويحي إبراهيم باشا و حسن صبري باشا (الممتد باسم محمد مظهر باشا ) والدكتور طه حسين وبهجت باشا على و يوسف كامل .

## الفصل الرابع : محمد قدرى باشا

### أول من قنن الشريعة الإسلامية و وضع الدستور

يمثل محمد قدرى باشا ١٨٢١ - ١٨٨٦ قيمة مهمة في التاريخ العربي الحديث، فهو في مجال التشريع الحديث الرمز الأول لتحقيق النجاح في العمل الدائب من أجل تطوير التراث بما يواءم طبيعة عصره وروحه، وقد أنجز هذا الهدف الكبير من خلال ما سمي تقنين مبادئ الشريعة الإسلامية ووضعها في صورة القانون والتشريعات الحديثة، ولم يكن هذا العمل بالسهل.

وبالإضافة إلي هذا فقد كان نموذجاً فذاً للمشرعين الوطنيين الذين أسهموا في صياغة التشريعات المدنية بل والدستورية ، وقد تعاون مع شريف باشا في وضع أول دستور لمصر، ولاشك في أن قدرى باشا كانت له يد طولي في صياغة مواد هذا الدستور الأول الذي جاء نتيجة لثورة الشعب ضد الاستبداد، وقد جمعت توجهاته الحاكمة لصياغته بين الإيمان بالحرية، والإيمان بالتقدم، وكان هو نفسه صورة من صور رواد النهضة التي تجلت من قبله في أستاذه الشيخ رفاة الطهطاوي.

#### نشأته وتكوينه

ولد محمد قدرى باشا في ملوي بالمنيا سنة ١٨٢١ وكان والده قدرى أغا أناضولياً، وكان أحد موظفي الدولة المرتبطين بمحمد علي باشا ، وتلقي تعليمه الأولي في مدرسة صغيرة بملوي، وفي هذه المدينة حفظ سور القرآن في الكتاب، وتلقي الدروس في المدرسة التي كان يطلق عليها اسم «مكتب ملوي» وكان تلاميذها يختارون من أبناء بعض السادة، ثم بعث به والده إلي القاهرة لاستكمال تعليمه فالتحق بمدرسة الألسن حين كان ناظرها رفاة بك الطهطاوي، وأتم بها دراسته، فظهر نبوغه وميله إلي العلم والترجمة، وقد أتقن اللغة الفرنسية إتقاناً كاملاً إلي جانب إتقانه اللغة العربية، وبعد تخرجه عينه رفاة بك الطهطاوي مدرساً مساعداً بالمدرسة.

#### هوايته لدراسة الشريعة

أحس محمد قدرى في نفسه نزعة إلي دراسة علوم الفقه والمقارنة بين القوانين الأوروبية والشريعة الإسلامية، وأحس في نفسه حاجة إلي الاستزادة من علوم الشريعة في مدرستها الكبرى في الأزهر الشريف، فكان يحضر بعض دروس الفقه

في الأزهر بعد تخرجه وعمله، وتتلذذ لكبار المشايخ الأزهريين في عصره، كما كان حريصاً علي مطالعة كتب الشريعة، وأصبح نموذجاً مبكراً لأمثالنا ممن يساعدهم السماع والاطلاع والدراسة الحرة علي الإمام بعلوم الشريعة إماماً ذكياً وعميقاً، وعلى دراسة الشريعة الإسلامية بعقلية جديدة تختلف عن عقلية أسلافه الذين كانوا يدرسونها من قبل أن يدرسوا القوانين الحديثة، ومفاهيمها، وأعانه هذا فيما بعد علي تأليف كتبه الشهيرة التي قرب فيها أحكام الفقه الإسلامي من العقلية العصرية بعبارات بسيطة، وصياغات ذكية.

### سكرتيراً للوالي علي الشام

اختير محمد قدري باشا سكرتيراً لشريف باشا الذي عين والياً علي الشام بعد انتصارات إبراهيم باشا ابن محمد علي في الشام، وفي أثناء إقامته في الشام تردد محمد قدري علي الأستانة وأفاد من رحلاته إليها كثيراً.

### العمل بتدريس اللغات والتأليف فيها

وقد عهد إلي محمد قدري بعد عودته من الشام بتدريس اللغتين العربية والتركية بمدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا، ثم اختاره الخديو إسماعيل مريباً لولي عهده أي للخديو توفيق ، وعين بعد ذلك رئيساً لقلم الترجمة بديوان الخارجية.

وفي أثناء اشتغاله بالتدريس ألف محمد قدري كتبا كثيرة قيمة في اللغة العربية وقواعدها ومفرداتها ومقارنتها بالفرنسية والتركية اللتين تمكن منهما حتى استطاع أن يؤلف بهما.

### أثر رفاعة الطهطاوي وعقلية الباحث الجامعي

والواقع أن محمد قدري كان نموذجاً مبكراً للباحث للجامعي جيد التكوين، القادر علي الإفادة من الاحتكاك الإيجابي بما لم يدرسه بفضل ما درسه، ومع أنه لم يدرس في معهد يحمل اسماً جامعياً فإن مدرسة الألسن في ذلك الوقت كانت قد صاغت مناهجها بفضل رفاعة بك علي طريقة تجعلها أشبه بجامعة صغيرة تضم دراسات متعددة تحت عنوان الترجمة، وتتفرع لتؤدي أدواراً متأثرة تؤذيها الآن كليات الآداب والحقوق و التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية!

وقد نبغ من تلاميذ هذه المدرسة كثيرون يكفي أن يكون قدرتي نفسه واحداً منهم،  
ويكفي أن يكون منهم علي سبيل المثال علي الطرف الآخر: الرائد الحقيقي للمسرح  
المصري محمد عثمان جلال ١٨٢٨ - ١٨٨٩ مترجم روايات موليير.

### توج جهوده في الترجمة بقانون نابليون

سنت قدرتي باشا فرصة مبكرة لإثبات موهبته عندما كلف الخديو إسماعيل  
رفاعة الطهطاوي بترجمة قانون نابليون الذي اشتهر في عالم القانون باسم «الكود»،  
لم يجد رفاعة أحداً يعاونه في الترجمة خيراً من تلميذه محمد قدرتي القانوني الضليع،  
وكان قد تولي قبل هذه الأثناء ترجمة عدد كبير من الأعمال القيمة مثل كتاب  
«معلومات جغرافية» الذي نشره سنة ١٨٦٩.

### ترجمة قوانين المحاكم المختلطة

في مرحلة تالية تولي محمد قدرتي باشا ترجمة قوانين المحاكم المختلطة تمهيدا  
لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة التي أراد الخديو إسماعيل أن يجعلها مكملة  
للمحاكم المختلطة بعد أن وجد أن القضاء الشرعي الذي كان لا يزال خاضعاً لنظام  
الدولة العثمانية لا يمكن أن يساير التفرنج الذي كان الخديو إسماعيل يسعى إليه  
بخطوات واسعة ، وهكذا توصل الخديو إسماعيل إلي ذلك القرار الكارثي المعادي  
للهوية الذي جعل المحاكم الشرعية تقتصر علي قضايا الأوقاف والأحوال الشخصية،  
وبدأ في العمل علي إيجاد قضاء أهلي بعيد عن القضاء الشرعي.

### مستشاراً في المحكمة المختلطة

عين محمد قدرتي باشا مستشاراً في محكمة الاستئناف المختلطة، وهو منصب  
كبير جعله مساوياً للمستشارين الأجانب الذين استقدمهم الخديو إسماعيل من أوروبا  
لتولي مناصب القضاء في المحاكم المختلطة.

وهكذا فإنه منذ منتصف السبعينيات من القرن التاسع عشر (١٨٧٥) عمل قدرتي  
مستشاراً بمحاكم الاستئناف المختلطة.

### توليه وزارتي الحقانية والمعارف

ظل محمد قدرتي باشا يحتفظ بمنصبه حتى اختاره الخديو توفيق وزيراً للحقانية  
في نظارة شريف باشا في سبتمبر ١٨٨١ (وهي التي تسمى بالوزارة الدستورية)،  
وظل يشغل هذا المنصب حتي نهاية عهد هذه الوزارة في فبراير ١٨٨٢.

و بعد انتهاء أحداث الثورة العرابية ، دخل محمد قذري باشا الوزارة مرة ثانية وزيراً للمعارف في مايو ١٨٨٣ في أثناء وزارة شريف الرابعة، وبقي إلي نهاية عهد هذه الوزارة في يناير ١٨٨٤، حيث استقالت الوزارة استقالتها التاريخية المشرفة احتجاجاً علي قرار الخديو بإخلاء السودان لبريطانيا في أثناء ثورة المهدي.

### قوانين للمحاكم الأهلية

عُني محمد قذري باشا في أثناء توليه وزارة الحقانية بوضع قوانين تحكم بها المحاكم الأهلية (التي تم إنشاؤها سنة ١٨٨٢)، وكان هو صاحب الدعوة إلي التمهيد لذلك الإنجاز التشريعي الكارثي الذي كانت الحكومة المصرية قد بدأت تفكر فيه، بإيجاد الازدواجية بين المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية، كما وضع ترجمات للقانون المدني الفرنسي، وكذلك القانون الجنائي الفرنسي.

### بحوثه

كتب محمد قذري باشا بحثاً مهماً في المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدني الفرنسي، واشترك بنفسه في وضع القانون المدني، وقانون تحقيق الجنايات، والقانون التجاري.

### أسس نظام العمل في المحاكم المصرية

يذكر لمحمد قذري باشا أن لائحة ترتيب المحاكم الأهلية صدرت في عهده، وعندما أُحيل إلي المعاش أصدر خلفه فخري باشا وزير الحقانية القوانين التي وضعها .

### توجهاته الدستورية

تعطينا مواد الدستور الذي شارك محمد قذري باشا في وضعه ١٨٨٢ (تحت اسم اللائحة الأساسية ) فكرة عن مدي إيمانه بالديمقراطية، وقد سجل محمد قذري هذه المواد في لائحة مجلس النواب، معبرا عن إيمانه بالحرية في مواجهة الاستبداد، وإيمانه الحث بالوطنية التي جعلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة.

■ النواب مطلقو الحرية في إجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم، ولا بود أو وعيد يوجه إليهم.

- لا يجوز التعرض للنواب بوجه عام، وإذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة انعقاد المجلس فلا يجوز القبض عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس.
- كل نائب يعتبر وكيلاً عن عموم الأمة المصرية لا عن الجهة التي انتخبته فقط.
- اللغة الرسمية التي تستعمل في المجلس هي اللغة العربية، وتحرير المحاضر والملحقات يكون بتلك اللغة.
- لا يسوغ لأحد النواب أن يستنيب عنه غيره لإبداء رأيه.
- يجوز لكل مصري أن يقدم للمجلس عرضاً (المقصود هو ما نعرفه الآن باسم الاقتراح)، وهذا العرض يحال النظر فيه إلي لجنة من المجلس لتحكم بدرجة اعتباره وهل يقبل أم يرفض، وإذا كان العرض متعلقاً بالحقوق الشخصية وتبين بالبحث أن مقدمه لم يسبق له تقديمه إلي المأمور (المقصود هو ما نعرفه الآن باسم المسئول)، المتعلق به ذلك الطلب أو إلي اللجنة التابع لها ذلك المأمور، فإنه يرفض رأساً.

### مواهبه الفنية

كان قدري باشا شاعراً، وقد ترك ديوان شعر مخطوطاً، وكان محبا للموسيقى كهواية، يشتغل بها ويستعين بها علي أداء واجباته المرهقة المصنية. في أخريات أيامه فقد قدري باشا بصره الذي اشتهر بحدته بسبب كثرة تأليفه وإغراقه في المطالعة، وبذل الجهد الضخم في هذا السبيل، غير أن فقد بصره وإخفاق علاجه في النمسا لم يمنعه من الاستمرار في رسالة التأليف التي هيا بها لأتمته معيناً ضخماً من المعرفة القانونية واللغوية.

### موسوعته ذات الكتب الثلاثة

- ● الأول: «مرشد الحيران في المعاملات الشرعية»، وهذا الكتاب يضم المواد القانونية في المعاملات المدنية والشرعية علي مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، وقد أجازته شيخ الجامع الأزهر، واعترف به كبار علماء الشريعة بعد دراسات عميقة، وهو أول كتاب وضع الفقه في مواد قانونية، وهو أول كتبه الثلاثة الخالدة التي جمع فيها الشريعة الإسلامية،



- وصاغها في مواد علي أسلوب «قانون بونايرت»، الذي كان قد شارك  
أستاذه رفاعه في ترجمته إلى اللغة العربية.
- ● الثاني: «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية».
  - ● الثالث: «قانون العدل والإنصاف في مشكلات الأوقاف».

#### آثاره الأخرى

- «معلومات جغرافية مصحوبة بنبذات تاريخية».
- «الدر المنتخب من لغات الفرنسيين والعثمانيين والعرب».
- «مفردات في علم النباتات».
- «الدر النفيس في لغات العرب والفرنسيين».
- «قطر أنداء الديم»، في الأدب.

#### وله من المخطوطات

- «تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقا لمذهب أبي حنيفة».
- «ديوان شعر».
- «قانون الجنايات والحدود».

#### وفاته

توفي محمد قدرى باشا في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦.

#### تكريمه

كان الدكتور محمد حسين هيكل باشا أول من تحدث عن قدرى باشا بما يستحقه  
من تقدير عميق، وذلك في كتابه «تراجم مصرية وغربية»

#### نشر أعماله

كنا قد وفقنا بفضل الله إلى الترتيب لنشر أعمال محمد قدرى باشا في مشروع  
لنشر كنوز القرن التاسع عشر، وقد مضى هذا المشروع خطوات كبيرة موفقة.

## الفصل الخامس : عاطف بركات باشا

### أكفأ أساتذة الفكر العربي في العصر الحديث

محمد عاطف بركات باشا (١٨٧٢ - ١٩٢٤) واحد من كبار التربويين المصريين المؤثرين في العصر الحديث ، وإذا كان هناك أستاذ مرب مؤثر في التعليم المصري جمع بين آثار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وعلي مبارك باشا أبو التعليم ، و الزعيم سعد زغلول باشا فإنه عاطف بركات قبل غيره ، وقد استأثرت استاذيته عن أستاذية المعاصرين له من الأساتذة الكبار بخاصة نادرة وهي أنها كانت أستاذية فكر لا أستاذية موضوع أو تخصص ، ولهذا فإنها أتت ثمارها متفوقة في الأركان الثلاثة أي في المنهج والموضوع و من قبلهما في الفكر .

#### نسيج وحده

عاش هذا الرجل أستاذيته بكل كيانه ولم يصرفه عنها مكانه المتقدم في السياسة ، ولا مكانته المرموقة في المجتمع ، ومن ثم فقد أصبح نسيج وحده من حيث كان رائدا وموجها بأكثر منه أستاذا ، و من حيث كان استاذا بأكثر منه عالما ، و من حيث كان عالما بأكثر منه باحثا ، وكان في كل هذا بمثابة النموذج العكسي لما يصنعه التعليم الجامعي مع المشتغلين بالعلم في صعودهم مدارج الرقي الفكري ، ومع أنه صعب التكرار فقد كان ثمرة طبيعية لظروف نادرة في مرحلة فارقة مع حظوظ باهرة ، ولهذا فقد كان الذين يتمنون له أن يتولى وزارة المعارف يعيرون عن أمل رفيع المستوى لهذا الوطن وللتعليم فيه لولا أن عمر الرجل لم يُسغه.

#### استوفى حظه من الدنيا في عام وفاته

استوفى هذا الباشا حظه من الحياة الدنيا في عام وفاته ١٩٢٤ فقد كان مرشحا ليكون وزيرا للمعارف فأصبح وكيلا للوزارة ونال الباشوية ، وتوفي في وقت رئاسة خاله سعد زغلول باشا للوزارة التي كان شقيقه وزيرا للزراعة ثم للدخالية فيها.

#### الأجيال و الاستاذية

نبدأ الحديث عن عاطف بركات باشا بالإشارة إلى حقيقة مهمة وهي أن لكل علم من أعلام الفكر والثقافة والطب والأدب أستاذ يهتدي به قد يكون هذا الأستاذ هو أستاذه الرسمي أي الذي تخرج على يديه، وفي مدرسته، وقد يكون هذا الأستاذ هو

أستاذة الروحي الذي ارتبط به رغم أن مقاعد العلم لم تجمعهما لأن العلم نفسه في انتقاله من الأستاذ إلى التلميذ لا يحتاج إلى مقاعد، وقد يكون هذا الأستاذ بعيداً عن تخصص التلميذ، وقد لا تكون هناك صلة في التخصص من الأساس وإنما هو المنهج.. وهكذا.

فإذا تناولنا هذه القضية في الاتجاه العكسي وقلنا إن لكل أستاذ تلميذ وريث، يرث مجده، وأسلوبه ويضيف إليه فإننا لا نتجاوز طبائع الأشياء.

وها نحن ننتقل إلى محور ثالث يسأل هل يلزم للعظمة أن يكون الأستاذ عارفاً بأن هذا هو تلميذه المفضل، وأن يكون التلميذ عارفاً ومقراً بأن هذا هو أستاذه المفضل؟ والإجابة معروفة نسبياً ، وهي : ربما نعم، وربما لا.

### الأستاذ المفضل والأثير للأستاذ أحمد أمين

بعد هذه المقدمات القصيرة أحب أن أقرر بكلّ وضوح أن الأستاذ عاطف بركات باشا كان هو الأستاذ المفضل والأثير للأستاذ أحمد أمين، وأن أحمد أمين كان التلميذ الذي ورث عن عاطف بركات باشا ، أقصى ما يُمكن أن يورث من رجل بطبيعة عاطف بركات، وإن كان عاطف بركات قد توفي قبل أن يرى مجد أحمد أمين وقبل أن يرى اعتراف أحمد أمين العميق بأستاذيته. وهذه هي طبيعة الحياة الدنيا حين تُطوى الأعمار وتقتصر من دون أن يستطيع لها الإنسان حساباً ولا توقعاً.

هل أقطع الحديث الذي أقدم به عن عاطف بركات لأروي أن أحداً أستاذتنا الأفاضل من كلية غير الطب قابلني ذات مرة في مناسبة اجتماعية ، فإذا به يقول إنه ذهب لزيارة قبر أستاذه في الأسبوع الماضي، ووقف على قبره وقرأ الفاتحة وأقرأه السلام، ثم أنهى إليه خبر بعض نجاحاتي الأخيرة، وقال له : إن حدسك صدق ، وإن ابنك الروحي قد أنجز ما كنت تتوقعه له ، وفوجئ من شهدوا هذا الحديث العابر بي ، وقد غبت عن الوعي نصف غياب ، وأنا أسأل هذا الأستاذ الجليل عن انطباع أستاذه حين سمع منه هذا الذي ذهب لإخباره به فيما يتعلق بي فإذا بالرجل الفاضل يُجيبني في هدوء وثقة مقلداً رد فعل أستاذه كما لو أنه كان على قيد الحياة.

فيما بعد ساعات اتصل بي واحد من الأصدقاء الذين حضروا الواقعة فقال لي إنه يريد أن يخبرني أنه كاد يشك في جنوني وحنون الأستاذ الذي تلقى سؤالي ، فلما سمع منه الإجابة انتابته رعشة مفاجئة سرعان ما تحولت إلى سكينه ثم إلى ما يشبه الغياب عن الوعي، وإنه في غيابه عن الوعي أخذ يشاهد الدنيا كلها وكأنه في فيلم

سينمائي سريع كفيل بأن يهز كل قناعات الإنسان مهما كان مادي النزعة ، وأنه رأى في تلك اللحظات ما صوره الأستاذ من حوارات ، وكأنه يحدث أمام عينيه. وختم هذا الصديق حديثه بقوله: جزاكما الله عني كل خير ، فإذا بي أقول له: ادع لأستاذنا قبل أن تدعو لأي منا.

### نجاحه الساحق في تكوين شخصيات قادرة على قيادة الفكر

لم يكن هذا الاستطرد الذي انتهيت منه لتوي استطراداً في واقع الأمر لكنه في الحقيقة هو أبلغ تصوير استطعت أن استحضره لأصور أثر شخصية الأستاذ عاطف بركات باشا في تلاميذه النجباء الذين ربّاهم قبل أن يُعلّمهم، وصقلهم قبل أن يُخرّجهم، وحضّرهم قبل أن يُتّفهم، وقومهم قبل أن يؤهّلهم، وهكذا فإنه استطاع تحقيق كلّ هذا النجاح لهم بحكم ما تعلمه في مصر وبريطانيا من أصول العلم والمناهج والتربية والفكر والحضارة.

ومن الطبيعي أن هؤلاء الأعلام ظلوا يفاخرون بهذا على الدوام على الرغم من أن عاطف بركات لم يمنحهم الدكتوراه ولا الماجستير و إنما منحهم ما هو أعز وأعظم من هذا بكثير .

نكون ظالمين للحقيقة لو أننا لم نشر إلى أحد أهم عوامل النجاح في تجربة أستاذية عاطف بركات ، فقد كان نظام هذه المدرسة التي أسسها وصنع رجالها يتيح له المسؤولية عن تعليمهم العام والجامعي معا أي أنه كان يتسلمهم فتيانا ويخرجهم رجالا ومن ثم فإنه كان يبني في كل عام على ما تحقق و تراكب و تراكم وتراكم في الأعوام السابقة .

### عني عاطف بركات باشا بملكة التفكير في تلاميذه

عني عاطف بركات باشا بأنماط التفكير في تلاميذه فلم يشغلهم بالفلسفة ولا بقادة الفكر من الفلاسفة ، وإنما جعلهم في دراستهم يتعاملون مع الفقه بالفكر ، ومع القضاء بالفلسفة ، ومع النظام بالقانون ، و وطأ لهم بذكائه التربوي المتمرس الاتصال المباشر بالجوانب التطبيقية لعلوم الفلسفة وعلم المنطق وعلم النفس والعلوم الاجتماعية.

وقد استطاع عاطف بركات باشا أن يُنجز هذا كله من خلال اختياره الذكي للمناهج والكتب المرجعية والمقررات الدراسية حيث رسم خطته في تكوين هذا المنهج بما

كان يتمناه في خريجي مدرسة القضاء الشرعي كمعهد علمي رفيع القدر في ميدان تخصصه ودراسته و عمله، وما كان يتصوره فيهم من قدرة على الحكم على الأمور.

### مقارنته بثلاثة من رواد العلم

كان عاطف بركات في عمادته رائداً من حيث هو قدوة، ورائداً من حيث مؤسس منهجي لم يتكرر مثله حتى الآن. وإذا كان هناك من عمداء الكليات الجامعية والمدارس العليا المصرية من أعطوا تأسيس مدارسهم العلمية حقاً زائداً حفظته لهم الأجيال فإن عاطف بركات باشا يأتي في مقدمة هؤلاء ومعه الدكتور مشرفة باشا، والدكتور علي باشا إبراهيم، والدكتور حسين فوزي، فقد قضى عاطف بركات باشا (مثله مثل مشرفة باشا) أربعة عشر عاماً في العمادة، وقضى الدكتور علي إبراهيم أحد عشر عاماً عميداً لطب القاهرة، وقضى الدكتور حسين فوزي عشر سنوات عميداً لعلوم الإسكندرية، وقد كان كل من مشرفة باشا وعلي باشا إبراهيم أول عميد مصري وكان عاطف بركات العميد المؤسس، وكذلك كان الدكتور حسين فوزي، وفي هذه العمادات بذل كل من هؤلاء جهده الدائب والبازغ في تكوين شخصيات علمية على أعلى مستوى أفادت المجتمع المصري والعربي بعد ذلك، وحتى لا نبتعد عن عاطف بركات فيكفي أن نذكر أنه كان الأستاذ المباشر والعميد الأثير لاثنتين من أبرز عمداء كلية الآداب في جامعة القاهرة وهما الاستاذان أحمد أمين وعبد الوهاب عزام، والثاني هو مؤسس جامعة الرياض ورئيسها حتى وفاته، كما أنه كان الأستاذ الأثير لعدد ممن تولوا أرفع المناصب الدينية بهمة واقتدار وتخرجوا على يديه في تلك المدرسة ومنهم الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر، والشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر، والشيخ محمد أحمد فرج السنهوري وزير الأوقاف، والشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية، والفقهاء الكبار الشيخان عبدالوهاب خلاف وعلي الخفيف اللذان حملا عبء أستاذية الشريعة في كلية الحقوق، والشيخ أمين الخولي وكيل كلية الآداب.

### المعلومات الخاطئة ضمت عدداً من أعلام الفكر لخريجي المدرسة

ربما أتوقف هنا لأنفي معلومات خاطئة كثيرة التردد ضمت إلى هؤلاء عدداً آخر من أعلام الفكر لم يتخرجوا في مدرسة القضاء الشرعي وإن كانوا قد زاروا حديقته، أو مكتبته، أو مروا على أرصفتها لكن بعض الباحثين نسبهم إليها.

## كيف فقدت مدرسة القضاء الشرعي مبرر وجودها

وإذا كان من المفهوم و المؤكد أن مدرسة القضاء الشرعي قد فقدت مبرر إعادة التفكير في وجودها بعد أن أخذ الأزهر بمبدأ الكليات الجامعية ، فتخطاها تماما ، وأصبحت كلية الشريعة في جامعة الأزهر منذ تأسست على أساس أكاديمي سليم أرقى وأفضل من مدرسة القضاء الشرعي بكثير، فإن هذا لا يعني ألا ننظر في جدوى الإفادة من ذلك الطراز الذي أسسه عاطف بركات ورعاه ، بل إننا مطالبون بتوسيع مدى الدراسات المتكئة على الشريعة الإسلامية إلى آفاق تربوية واجتماعية من هذا القبيل الذي يستهدف التأهيل لوظيفة محددة مع عدم الابتعاد عن الروح الجامعية ، ذلك أن هذا الطراز لا يزال يُنبهنا إلى الحاجة إلى استنساخه سواء في تطوير بعض الكليات الأزهرية المستحدثة في دراسة العلوم الدينية (ككلية الدراسات الإسلامية و العربية ) إلى نمط ذي طبيعة خاصة لتكون هناك دراسة للشريعة والتربية على سبيل المثال، حتى إذا لم يكن بالإمكان أن تطور كوادر هيئات التدريس بتأهيل مواز في علوم النفس والاجتماع بما يُمكن الطلاب من مفاهيم أكثر رحابة.

## نجاحه البارز في تجسيد الفكرة

وبعيداً عما يختلف فيه أساتذتنا الذين يكتبون تاريخ مؤسساتنا العلمية من خلال التاريخ الوطني وصراع الطوائف والقوى الاجتماعية فحسب مغفلين ما هو أهم من هذا وهو تطلعات قادة الفكر الوطني إلى تحقيق الوسائل الكفيلة مع الزمن بإنجاز تحوّل نوعي في أداء الوظائف العامة، فإني أذهب إلى ما لم يذهب إليه غيرنا من أن علي مبارك باشا الملقب عن حق بأبي التعليم ، كان حفياً إلى أبعد حد بأن يُحقّق في نظم التعليم المصري طفرة يتفوّق بها على التعليم الفرنسي والبريطاني معاً،(من دون أن يصرح بهذا) وقد كان على صلة بهما معا فقد كان هو نفسه كما نعرف قد تعلّم في فرنسا وخاض تجاربه التعليمية على مدى سنوات، وظل على اتصال بهذه الثقافة طيلة ما تبقى من حياته، وعلى صعيد آخر فإنه كان بحكم مسؤوليته عن المدارس ثم عن المعارف (والأشغال معها) على صلة وثيقة بالتعليم البريطاني في بلادهم، وما يفرضونه من أنماطه في مستعمراتهم أوفي مناطق نفوذهم مثل مصر.

وفيما يبدو واضحاً لكل ذي بصيرة فقد رأى علي باشا مبارك بموسوعيته وبقدرته على إحياء عصر الموسوعات والخطط وتحقيق نهضة للفكر والتربية أن تطوير التعليم المصري لا بد أن يتم في إطار ما هو موجود في مؤسسة عريقة اسمها الأزهر

الشريف، وإن هذا التطوير يمكن أن يتم بخطوات أسرع وأكثر أماناً واستقلالاً إذا ما تمّ من خلال ما نسميه الآن "مؤسسة" المستهلك النهائي ، وفي حالة مؤسسات إعداد المعلمين فإنها هي وزارة المعارف ، و في حالة إعداد القضاة فإنها هي وزارة الحقانية .

### المدارس العليا المرتبطة بالمهن

وهكذا رأى علي مبارك باشا أن أسلوب المدارس العليا المهنية الذي تأخذ به بريطانيا يمثل نموذجاً قادراً على استيعاب هذه الغاية من التطوير التعليمي في مستوى الخريجين، لكنه أراد لهذه المؤسسات الجديدة التي كان ينتوي إيجادها أن تتحرر من الإطار البريطاني الصارم الذي يجعلها تقصر الأفق المتاح لخريجها على المجال الوارد في اسمها كي يتحول بها إلى أن تصبح شبيهة بالجامعة المصغرة على النحو الذي هو متاح في بعض المدارس العليا الفرنسية .

وهكذا وجد علي مبارك توافقاً في نفسيته مع طريقة الفرنسيين في الإحياء بالاسم ليكون قادراً على الاستيعاب بدلاً من صرامة التحديد البريطانية، وهكذا اختار لدار العلوم هذا الاسم الواسع أو المطلق ذي الإحياء الواسع الذي يذكر باسم من قبيل كوليغ دي فرانس أي "كلية فرنسا" فحسب، مع أنها أصبحت مؤخراً جامعة محتفظة بالاسم نفسه ومضيفة إليه كلمة "جامعة" أي أنها أصبحت جامعة كلية فرنسا .

مما لا يسجله التاريخ التربوي صراحة أن علي مبارك كان ينظر إلى الطب والقضاء نفس النظرة التي ينظرها إلى علوم اللغة العربية والأدب العربي، وعلى حين أنه أنشأ دار العلوم فإن كثيرين من خلفائه حرصوا مرة بعد أخرى على أن ينهوا وجود هذا الاسم الذي لم يكن يوحى بما توحى به أسماء المدارس العليا الأخرى فلا هو كمدرسة المهندسخانة ومدرسة المعلمين العليا ولا كمدرسة الزراعة الخ، وبالفعل فقد عدلت الدولة (والحكومة) عن اسم دار العلوم إلى اسم آخر هو دار المعلمين الناصرية واستمر هذا الاسم بعد إلغاء اسم دار العلوم لفترة ، ثم عاد حنين الخريجين القدامى إلى اسم المدرسة التي تخرجوا فيها فأعادوه حين أتيح لهم أن يكونوا أصحاب القرار .

لست أحب الاستطراد إلا أنني أتظاهر به لأمر ما أريد مما يظنه بعض القراء بعيداً عن النهر المتدفق لما أتحدث عنه، وها أنا ذا أستطرد لأقول إن علي مبارك هو الذي حول مدرسة الطب من النظام الفرنسي إلى النظام البريطاني على عكس ما

كان متوقعا من مثله، ولا تزال تلك المدرسة على عهدها باللغة الإنجليزية منذ ذلك الحين ، وأستطرد مرة أخرى لأقول إن التطويرات أو التعديلات التي أحدثها علي باشا مبارك في مدرسة الطب كانت محل سخط وانتقاد الأطباء من طبقة أعلام الطب المصري الحديث وفي مقدمتهم علي باشا إبراهيم وزملاء علي إبراهيم باشا وتلاميذ علي إبراهيم باشا ، ونحن ثالث أجيالهم.

أظن أن القارئ فهم ما أردته من هذا الاستطراد وهو أن المؤسسات التقليدية بما فيها ما أسسه علي مبارك باشا نفسه أو (شرع في تأسيسه أو أتم تعديله) لم تكن على الدوام مرتاحة إلى هذا الأسلوب في التطوير والاستحداث، وهو أمر طبيعي، يحسب لعلي مبارك شجاعته وقدرته على الإنجاز القابل للحياة.

وهنا نستطيع أن نفهم دور عاطف بركات (خريج دار العلوم) في مدرسة القضاء الشرعي فقد استطاع هذا الرجل أن يبعث هذه المدرسة متوجا مراحل وجودها الذي تحول من فكرة متخيلة إلى فكرة مخططة ثم إلى وجود حي . فقد بدأت المدرسة وجودها التخيلي بما وضعه علي مبارك باشا بالمواكبة لتصوره لدار العلوم و لتطوير مدرسة الطب وإن لم يتح له أن يصدر قرار إنشاء مدرسة القضاء الشرعي بهذا الاسم أو بغيره من الأسماء. ثم جاء دور وجودها القانوني أو الرسمي أو التنفيذي على يد سعد زغلول باشا وزير المعارف (وخال عاطف بركات نفسه) استجابة لوصية أستاذه الشيخ محمد عبده التي حاول إنفاذها وشرع في إنشاء المدرسة لكن العمر لم يتيح له فرصته لإخراج فكرته حيز الوجود.

نحن إذن في حالة مدرسة القضاء الشرعي نواجه الوجود في صورته الأربعة:

- الوجود التخيلي : علي مبارك باشا ١٨٢٣ - ١٨٩٣
- الوجود التخطيطي : الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ - ١٩٠٥
- الوجود التنفيذي : سعد زغلول باشا ١٨٥٩ - ١٩٢٧
- الوجود الحي : عاطف بركات باشا ١٨٧٢ - ١٩٢٤

### طبيعة دوره في مدرسة القضاء الشرعي

لم يكن محمد عاطف بركات باشا ، في مدرسة القضاء الشرعي ، صاحب دور فكري أو توجيهي فحسب لكنه بلغة التنفيذيين والتربويين كان صاحب دور مؤسسي وتنفيذي كبير في هذه المدرسة التي أدارها وأكسبها ملامحها المتميزة التي بقيت لها



طيلة الفترة التي عاشها، وقد بدأ مهامه بأن اختار لهذه المدرسة أكفأ العناصر من مدرسي الأزهر ووزارة المعارف علي حد سواء، وسرعان ما نجح في تحويلها لتكون بمثابة المدرسة العليا النموذجية في زمنها.

وقد أفادت المدرسة من شخصيته كما أفادت من جهوده، وتحفل الكتابات التي تحمل طابع الذكريات المتاحة عن تلك الفترة بروايات لا نهاية لها عن دوره الرائد في مدرسة القضاء الشرعي ، وعن أثره الممتد في تلاميذها، وفي مقدمة هذه الكتابات ما ذكره أحمد أمين في مذكراته التي أفاض فيها في الحديث عن دور عاطف بركات في هذه المدرسة وما نجح فيه من تربية تلاميذها علي الاعتزاز بالنفس، والكرامة، وحب الاطلاع، والتخلق بالأخلاق الكريمة، والرغبة الصادقة في تحصيل العلوم علي اختلافها، وبالإضافة إلي توليه نظارة المدرسة فقد اختص عاطف بركات نفسه بتدريس علم الأخلاق فكان نموذجا للأستاذية الناضجة ، وكان يناقش الطلبة في أوقات فراغهم، و يقف منهم مواقف سقراط، وكذلك كان شأنه

ويروي أيضا أنه كان في ذلك الزمن المبكر حريصاً علي الضبط والربط حتي إنه كان يسجل المكاتبات في سجلات، ويحتم وجود الرد عليها بعد ثلاثة أيام من تاريخ ورودها .

### استنساخ تجربة كلية دار العلوم

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإنه حين بدأت الجامعات الإقليمية في استكمال كلياتها لتكون مشابهة للجامعات القديمة أو لجامعة القاهرة بصفة خاصة ، فإن جامعة المنيا رأت أن تستنسخ تجربة كلية دار العلوم، وقد نجحت في هذا ، وصدرت قرارات تأسيسية لدار العلوم في المنيا، لكن رأيا جامعيا قال بأن يبقى اسم دار العلوم لكلية دار العلوم في جامعة القاهرة وحدها، كحق تاريخي علي أن تسمى كلية دار العلوم التي أنشأت في المنيا باسم آخر مناسب هو كلية الدراسات العربية والإسلامية ، وأذكر أنني كنت في زيارة الدكتور محمد عزت خيرى أستاذ الكيمياء والأمين العام للمجلس الأعلى للجامعات حين كان قد انتهى لتوه في ذلك اليوم بالاتفاق علي هذا ، وإقناع أولي الأمر في جامعة المنيا به، لكن الزمان سرعان ما مرّ فإذا بفرع جامعة القاهرة في الفيوم (قبل أن يتحول إلى جامعة الفيوم) يحصل علي الموافقة علي إنشاء دار العلوم في الفيوم، لتكون الآن من حيث التسميات ثاني كلية موجودة بهذا الاسم، وإن كانت في واقع الأمر ثالثة الكليات التي تأسست بهذا الاسم وعلي هذا النمط ،

ولا أزال أدعو الله أن يوفقني للمساهمة في إنشاء كليتين أخريين لدار العلوم في الإسكندرية والدلتا وثالثة في سيناء.

### خلافه مع البيروقراطية المصرية التقليدية

لا يمكن لنا أن ننكر فضل سعد زغلول على عاطف بركات باشا في مراحل تكوينه ثم في مرحلة نظارته لمدرسة القضاء الشرعي حيث كان بمثابة الهرم الكبير الذي كان عاطف بركات يستند إلى دعمه الجاد والمستمر، وقل مثل هذا في حالة وزراء المعارف التاليين لسعد باشا و في مقدمتهم أحمد حشمت باشا الذي حافظ لعاطف بركات باشا على قوة الدفع واستقلال الإرادة، وذلك على الرغم من اختلافهما الذي سنشير إليه .

ترك عاطف بركات باشا نظارة مدرسة القضاء الشرعي بسبب الخلاف مع رئيس الوزراء محمد توفيق نسيم باشا في وزارته الأولى، وكان نسيم باشا (الذي لم يُصب بفيروس الوطنية على حد وصفه لنفسه ) هو أيضا السبب في ترك الشيخ محمد بخيت المطيعي لمنصب المفتي على نحو ما كان من ترك عاطف بركات باشا لمنصب ناظر القضاء الشرعي ، وقد كان نسيم باشا في ذلك الوقت أصغر من وصل إلى رئاسة الوزارة بعد سنة واحدة من دخوله الوزارة وهكذا كان مهيباً للعصبية ولتصعيد الأمور إلى درجة الافتراق.

ومن الطريف أن لنسيم باشا علاقة غير مشهورة بسعد زغلول وعائلته ، لكننا تدلنا على أن اعتداد هذا الجيل بالرأي كان يتفوق على أية اعتبارات أخرى، كانت هذه الصلة من خلال أحمد فتحي زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية و شقيق سعد زغلول الذي لا ننثي على سعد زغلول باشا إلا ويستحضر لنا أصدقائنا العدميون اسمه باعتباره قاضيا في محكمة دنشواي، وذلك على الرغم من ان هدي نبينا عليه الصلاة والسلام نهانا عن هذا ، فقد كانت شقيقة محمد توفيق نسيم باشا زوجا لأحمد فتحي زغلول باشا ومع هذا فإن نسيم باشا وقف هذا الموقف من صهره عاطف بركات باشا .

و إذا كان الشيء بالشيء يُذكر فإن سعد زغلول باشا نفسه اختار نسيم باشا وزيراً للمالية في وزارة الشعب الأولى ، وهكذا كان على عاطف بركات باشا وكيل وزارة المعارف أن يتعامل مرة أخرى مع نسيم باشا و قد أصبحا في موقعين مختلفين، ولو أن عاطف بركات باشا كان قد تولى وزارة المعارف كما كانت التطلعات تسير و

تشير لتزامن هذا مع تولي نسيم باشا للمالية ، ومن الجدير بالذكر أن نسيم باشا الذي تولي رئاسة الوزارة ثلاث مرات كان يصغر عاطف بركات باشا في السن بثلاث سنوات لكنه لا يحظى في تاريخنا بعشر ما يحظى به عاطف بركات باشا من الذكر الحسن والاحترام والتقدير .

### نشأته وتعليمه

اسمه بالكامل محمد عاطف عبد الله عبده بركات، يروي أن نسب عائلته ينتهي إلي سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان أبوه ناظر قسم دسوق، وهي وظيفة إدارية وحكومية كبيرة، لكنه اعتزل الخدمة بقرار من إسماعيل صديق باشا المفتش صاحب السطوة في عهد الخديو إسماعيل، أما أمه فهي كما ذكرنا أخت الزعيم سعد زغلول باشا. أرسله أبوه إلي مصر في سن الحادية عشرة بعد أن حفظ القرآن في كتاب القرية، فدرس في مدرسة الجمالية الابتدائية مع اثنين من أخواله وهما عبد الرحمن زغلول الذي تخرج أيضا من دار العلوم ، وعبد الله زغلول ، وكان هو أصغر من خاليه ، ودرس بالأزهر نحو أربع سنين، والتحق بدار العلوم (١٨٩٠)، وتخرج فيها (١٨٩٤).

### بعثته

وسرعان ما اختير عاطف بركات لبعثة علمية إلي انجلترا في سنة تخرجه مباشرة (١٨٩٤). وقد كان عاطف بركات باشا أول مبعوث إلي انجلترا من أبناء دار العلوم، وفيما بعد سنوات قليلة لحق به ألمع خريجي دار العلوم في هذا الجيل ، وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش.

يروى الدكتور محمد عبد الجواد أنه كان قد قدر لعاطف بركات أن يعيش مع خاله سعد زغلول باشا في بيته بعابدين، وكان يأكل معه علي مائدته، و يتلقى عنه أساليب الحياة، ودروس الرجولة والشجاعة والكرامة، وقد بقي مع خاله حتي سافر في البعثة إلي أوروبا، وقد عاد إلي السكن مع خاله أيضا بعد عودته من أوروبا.

### الأستاذ الذي لم يعمل بالتدريس وبدأ حياته موجهًا

لما عاد عاطف بركات باشا من بعثته ، لم يعمل بالتدريس، بل عين مباشرة مفتشا في المدارس الأميرية، وكان المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف المستر دنلوب يحترمه ويقدره، ويكل إليه الفصل فيما يكون من نزاع بين بعض مدرسي

اللغة العربية ونظار المدارس، ثم كلفه (١٩٠٣) بدراسة إصلاح التعليم الأولي في الكتاتيب ، وأن يختار من يشاء من خريجي دار العلوم، لمساعدته في هذه المهمة على أن يتزويوا بزوي المشايخ لا بالزوي الإفرنجي ، حتي لا يرتاب فقهاء المكاتب في هؤلاء المفتشين، وقام عاطف بركات بهذه المهمة على أتم وجه .

ثم جاءت له الفرصة الكبرى لدخول التاريخ التربوي والفكري من أوسع أبوابه حين أنشئت مدرسة القضاء الشرعي في عهد تولي خاله سعد زغلول وزارة المعارف فاختر ليكون ناظرا لها، على نحو ما ذكرنا.

### مشاركاته السياسية في ثورة ١٩١٩ ونفيه إلى سيشل

كان عاطف بركات باشا من قادة العمل السياسي في ثورة ١٩١٩ وبالطبع فقد أؤذي في وظيفته بسبب هذه المشاركة ثم كان واحدا من الذين نفوا مع سعد زغلول باشا والنحاس باشا و شقيقه فتح الله باشا وسينوت حنا و مكرم عبيد إلى جزيرة سيشل.

### مقال الأستاذ أحمد أمين الشهير في التعريف به

نبدأ بأن نشير إلى أن هذا المقال منشور أيضا في الجزء الثامن من كتاب فيض خاطر مع الإشارة إلى تاريخ مولد محمد عاطف بركات في عنوان الفصل على أنه في ١٨٦١ وهو مالم يرد في أي مصدر آخر.

يقول الأستاذ أحمد أمين :

" من الأقوال المأثورة أن كل إنسان إما أن يكون أفلاطون أو أرسطو؛ يعنون بذلك أنه إن غلب عقله عواطفه كانت نزعته أرسطاطالية، وإن غلبت مشاعره عقله فنزعته أفلاطونية. ونستطيع قياساً على هذا أن نقول: إن كل متصدِّ للإصلاح وقيادة أمور الناس إما أن يكون علياً أو معاوية؛ فإن غلب عليه تحريه للعدل المطلق في كل صغيرة وكبيرة، وعدم رضاه عن أي ظلم مهما كانت نتيجته، فهو أقرب إلى نزعة عليٍّ، فعنده أن الخط إما أن يكون مستقيماً أو أعوج، ولا شيء بينهما، ويحب عليُّ السير في الخط المستقيم دائماً من غير نظر إلى العواقب. أما معاوية فشيء آخر، يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، وهو يعلن عن سياسته بقوله: «إننا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل»، فمن سار على هذا النهج وارتكب الظلم أحياناً بغية الوصول إلى نفع كبير فهو أميل إلى خطة معاوية".

"والسياسيون ، عادة ، من قبيل معاوية، ينحرفون عن الحق أحياناً بحجة أنهم يقصدون إلى منفعة كبرى، وينظرون إلى المسائل السياسية نظرة البائع والمشتري؛ يدفع الثمن ظناً في الربح، فهم يضحون بالحق أحياناً أملاً في تحقيق حق أكبر، وقد يخدعون بذلك أنفسهم. وقادة مصر وساستها كغيرهم من القادة، والساسة أكثرهم من هذا القبيل؛ لأنهم رأوا أن السياسي والقائد لا بد أن يأخذ ويعطي ويتنازل عن شيء ليستمسك بشيء، وإلا كان كالشجرة الصلبة أمام الريح العاصفة لا بد أن تنكسر لأنها لم تَلِنْ".

"وهذا لم يمنع أن يهب الله مصر كما يهب العالم رجالاً صلب عودهم واشتد خلقهم، فوهبوا أنفسهم للحق، لا شيء غير الحق. كان من هذا القبيل في عصرنا الحديث حسن باشا عاصم".

### يقارنه بحسن عاصم باشا

" وجاء عاطف بركات يمثل هذا الطراز، ويتخذ من حسن عاصم أستاذاً؛ إذ كان يعاشره ويعجب به، كما كان يتخذ من «كنت» مثله الأعلى، وكثيراً ما كان يحدثنا عنه ويستثير إعجابنا به في دفته ونظامه في حياته، وأنه كان إذا خرج من بيته ضبط الناس ساعاتهم على موعد خروجه، وهكذا.

### حبه للنظام وتمسكه بالعدل

" هذه أكبر ميزة لشخصيته: حبه للنظام الدقيق، وتحريه للعدل المطلق، والتمسك به مهما جلب عليه من متاعب تولى نظارة مدرسة القضاء الشرعي، وظل فيها أربعة عشر عاماً، فأشعَّ فيها روحه، وكان طلبتها وأساتذتها وزائروها يلمسون العدل ودقة النظام، ويتنفسون كل ذلك من جوها، فالمدرسة سائرة كالساعة، كل عضو يعرف عمله ويؤديه في وقته، وهم يرونه دائماً لا يملُّ، فيخجلهم بجده ونشاطه، فيقلدونه في سيرته؛ فإذا جدَّ الجد تجلَّى عدله في أكبر مظهره".

### معارضته للخديو عباس حلمي

"أراد الخديو عباس أن يعطي أحد المدرسين بالمدرسة درجة مالية أعلى من درجته، وأوفد إلى أعضاء مجلس إدارة المدرسة بذلك، فكلهم قبل نزولاً على إرادة الخديو ورغبة في المسالمة، ولكن عاطفاً رأى أن غير هذا الأستاذ أحق منه، وأن في إعطائه ظلماً على الآخرين، فأبى وأصرَّ على الإباء، ووضع نفسه والمدرسة في أزمة مع ناظر المعارف ومع السراي، فلم يعبأ بهذا كله".

### معارضته لسعد زغلول باشا

"ومثل الدور نفسه مع سعد باشا زغلول؛ إذ كان عاطف وكيل وزارة المعارف، ولسعد زعيم الأمة كل السيطرة على شئون البلاد ومصالح الحكومة، فطلب سعد منه أن يقبل ابن حمد باشا الباسل في مدرسة ثانوية، وكانت سنة تتجاوز السن القانونية بأشهر، فأبى عاطف وقال: إما أن نغير القانون ونقبله ونقبل كل أمثاله، وإما أن نرفض الجميع، وغضب سعد من ذلك أشد الغضب فلم يبالٍ بذلك".

### معارضته لأحمد حشمت باشا

".. كان أحمد حشمت باشا ناظر المعارف قد اقترح على مدرسة القضاء أن تعين فلاناً مدرساً خطئاً، وكان فلان هذا من أحسن الناس خطأً وأحسنهم خلقاً، ولكن عاطفاً أبى؛ لأن قانون المدرسة يجعل اقتراح التعيين من حق مجلس إدارة المدرسة، وليس لناظر المعارف حق إلا القبول أو الرفض، لا حق الترشيح ابتداءً، وكانت أزمة طويلة، وعاطف يرى الحق بجانبه، وناظر المعارف يرى أنه مُسَّ في كرامته، ولقيت المدرسة من ذلك عنثاً واضطهاداً صبر له عاطف، وأخيراً نزل ناظر المعارف عن رأيه، وأقرَّ من رشحته المدرسة لا من رشحه هو، وهكذا كانت حياته كلها صراعاً، فما استمسك أحد بالحق إلا أودى، ولكنه في الوقت عينه أجلُّ وأكبر".

### كان نظيف العقل، لا يقبل إلا الفكرة الواضحة

"وناحية أخرى كانت تركز عليها عظمته؛ ذلك أنه لم يكن واسع الاطلاع ولا بحة في الكتب، ولا عاكفاً على البحوث العلمية والأدبية، وإنما يقرأ ما يقرأ في رفق وهوادة، ولكنه مع ذلك نظيف العقل، لا يقبل عقله الفكرة إلا إذا كانت واضحة، ولا يعبر عنها إلا إذا كانت ناضجة محددة، وهو إلى ذلك حرُّ التفكير، لا يعبأ بالآراء الموروثة، ولا بالتقاليد المرعية في الأفكار، ثم هو طويل النفس في الجدل، قوي الحجة في المناظرة، لا يملُّ ولا يتعب، حتى قد يسلم له مجادله لا عن اقتناع، ولكن حباً في الراحة، وطلباً للسلامة.

### محبوباً من تلاميذه ومحترماً من الجميع

"لا فرق عنده في تحقيق العدالة بين قريبه وغير قريبه، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، بل ولا بين من يحبه ومن يكرهه؛ أمام عينيه قوانين العدالة وكفى، وهو ليس إلا قاضياً يطبقها معصوب العينين عن كل اعتبار وكل عصبية، ومثل هذا الرجل،

وخاصة في مثل أمنا التي اعتادت الإفراط في المجاملة والمحسوبة ، لا يكون محبوبًا إلا من تلاميذه وخاصته، ولكنه يكون محترمًا من الجميع، وكذلك كان، فكم رُجي فرفض الرجاء، وكم طُلب إليه أن يعض طرفه عن القانون فأبى إلا القانون، وكم نُصح أن يرعى الكبراء؛ وخاصة في المسائل الصغيرة لتجانب مطالبه في المسائل الكبيرة، فلم يستغ عقله هذه المساومة، فكان كل هذا مدعاة لمحاربتة وكثرة اصطدامه."

### كان يقتدى بطريقة «سقراط»

" ولو ثوقه من نفسه في ذلك، وحبه في نشر أفكاره، اتخذ طريقة «سقراط» في تعليمه؛ فكان ينتهز كل فرصة لإثارة الموضوعات التي تنبعث من الظروف الحاضرة، في حجرة المدرسين، في مطعم الطلبة، في حلقاتهم، في الفسح، فيثير مسألة من المسائل ويبرهن عليها، ويتلقى الرد عليها من المدرسين أو الطلبة، وتكون المسألة حديث المدرسة في الفصول وأوقات الفسح، وقد تستمر أيامًا والعقول متيقظة باحثة فاحصة، فإذا انتهت أثر غيرها، وهكذا. فكان هذا مثار نشاط ذهني عجيب، ومدعاة لتحرير الأفكار، وتعويدها على الاستقلال في التفكير."

### أخلاقه صالحة لإصلاح مدرسة عالية

"كانت أخلاقه هذه الصارمة القوية صالحة كل الصلاحية لإصلاح مدرسة عالية؛ ولذلك نجح فيها كل النجاح، وخلق جواً من العدل والنظام وحرية التفكير، يستتشق منه كل أستاذ وكل طالب على حسب استعداد رثته، وطبع كل من في المدرسة بطابع بيّن الأثر، وكانت لهم في حياتهم العامة بعد روح مستمدة من روحه، وأخلاق هي صدى لأخلاقه. فلما تقلد منصب وكالة المعارف، اصطدم اصطداماً عنيفاً بالرجاوات والدرجات والعلاوات، ولم تتحمل ميوعة الناس صلابته، ولا عنوبة مجاملاتهم مرارته، فلم ينجح فيها نجاحه في مدرسته. ولما انغمس في السياسة العامة للبلد، وبالحرركات السياسية مع سعد وصحبه، لم تسعفه أخلاقه؛ لأن ألف باء السياسة المصانعة والمجاملة والمهارة في المساومة، وهو لا يحسن شيئاً من ذلك؛ ولذلك كله كان نجاح أخيه فتح الله في هذا الباب أكثر من نجاحه هو، وكلُّ ميسرٍ لما خُلق له."

### نواله البكوية والباشوية

لما قام السلطان حسين كامل بزيارة المدرسة عقب توليه الحكم (١٩١٥) وأعجب بها، فإنه أنعم علي محمد عاطف بركات برتبة البكوية من الدرجة الأولى. وفي

عهد وزارة الشعب اختير محمد عاطف بركات باشا ليتولى منصب وكيل وزارة المعارف (١٩٢٤) ونال الباشوية.

### قصيدة الشاعر على الجارم في رثاء عاطف بركات

لا يصدّق على قصيدة من قصائد الشاعر على الجارم التي أنشدها في المناسبات أنها ألصق ما تكون بمناسبتها مثلما يصدّق هذا الوصف على قصيدته في رثاء عاطف بركات فالقصيدة الطويلة (٦٨ بيتاً) لا تكاد تبتعد عن عاطف بركات إلا لتعود إليه ، وهي تخلو من المقدمات التقليدية الطويلة ، كما تخلو من الاستطرادات الطويلة المعهودة أيضاً، وتركز على صفات المرثي وحياته وتاريخه وإنجازاته على نحو يمكن اعتبارها بمثابة سيرة حقيقية لعاطف بركات.

ومن المهم أن نقدم لتناولنا القصيدة بالإشارة إلى أن عاطف بركات كان بالنسبة للشاعر علي الجارم وجيله بل والجيل الذي سبق ذلك الجيل بمثابة المرثي المثالي أو النموذجي فهو الذي أسس مدرسة عليا ورعاها وجعل لها ذكراً سامقاً في عالم الفكر فلما تركها انتهى عهد المدرسة الذي واكب وفاة عاطف بركات نفسه بعد تركه لعمادتها. و من الجدير بالذكر أيضاً أن نكرر هنا أن عاطف بركات باشا كان هو المرشح الطبيعي ليكون وزيراً للمعارف في وزارة الشعب الأولى التي شكلها سعد زغلول في يناير ١٩٢٤ [وقد ذكرنا هذا مبكراً في كتابنا «كيف أصبحوا وزراء»] لولا أن شقيقه الأكبر فتح الله بركات اختير لعضوية هذه الوزارة ، وهكذا خسرت المعارف عاطف بركات وإن عمل وكيلاً لوزارة المعارف حيث كان الوكيل يقوم بدور لا يقل عن دور الوزير نفسه.

### بكاء العين على العقل الجليل

يبدأ الشاعر على الجارم بوصف بكاء العين على العقل الجليل الذي رحل فاهتز الوادي لرحيله، وهو على عادة الملتاعين يرى أن سهماً قد أصاب الفقيد ، وقضى على الآمال في مهدها ، وجعل الشعلة رماداً (البيت الخامس) وأغمد الحسام (البيت السادس) .

١. العَيْنُ عَيْرِي، والنَّفُوسُ صَوَادِي
  ٢. أَرْجَاءَ ذَا الْوَادِي الْخَصِيبِ جَنَابُهُ
  ٣. سَهْمٌ رَمَاكَ بِهِ الْحَمَامُ مُسَدَّدٌ
- ماتَ الْجَجَا، وَقَضَى جَلالُ النَّادِي  
مَاذَا أَصَابَكَ يَا رَجَاءَ الْوَادِي؟  
أُودِي بِأَيِّ رَوِيَّةٍ وَسَدَادِي!



٤. وَقَضَى عَلَى الْأَمَالِ فِي أَفْنَانِهَا  
٥. وَأَصَابَ مِنْ قَبَسِ الزُّكَاةِ شُعْلَةً  
٦. وَطَوَى حُسَامًا مِنْكَ فِي جَفْنِ النَّرَى  
فَذَوْتُ وَلَمْ تُمَهِّلْ لَوْقَتِ حَصَادِ  
وَهَاجَةً، فَغَدَتِ فَتَيْتَ رَمَادِ  
قَدْ كَانَ يُسْتَعَصَى عَلَى الْأَعْمَادِ

### حكمة الحياة والموت

ثم يتحدث الشاعر على الجارم عن حكمة الحياة والموت بدءاً من البيت السابع ويتساءل بدءاً من البيت العاشر عن الدنيا التي حيرت المعري، ويصوغ المفارقة بين الحزن والفرح هناك، وضرورة هذا الحزن لذلك الفرح ، ولا أدري ما الذي دفعه للاستشهاد على هذا المعنى بروايته أو إشارته السريعة لقصة استشهاد الحسين التي مثلت عيداً ليزيد وآل زياد في البيت الرابع عشر الذي لا أراه يرقى إلى حصافة الشاعر على الجارم .

٧. صُحُفُ الْحَيَاةِ، وَأَنْتَ أَصْدَقُ قَارِيٍّ  
٨. وَالْوَرْدُ يَزْهُو نَاضِرًا فَوْقَ الرَّبَا  
٩. وَالْمَاءُ يَجْتَذِبُ النُّفُوسَ نَمِيرُهُ  
١٠. مَا هَذِهِ الدُّنْيَا؟ أَمَا مِنْ نِعْمَةٍ  
١١. قَدْ حَيْرَتْ شَيْخَ الْمَعْرَةِ حِقْبَةً  
١٢. تَعَبُ الْحَيَاةِ يَجِيءُ مِنْ لَدَاتِهَا  
١٣. يَطْوِي بِسَاطِ الْعُرْسِ فِيهَا مَاتَمٌ  
١٤. قَدْ كَانَ فِي رُزْءِ الْحَسَيْنِ بَكْرَبَلًا  
لِسُطُورِهَا، تُطْوَى إِلَى مِيْعَادِ  
وَيَعُودُ حِينًا وَهُوَ شَوْكُ قَنَادِ  
وَلَقَدْ يَكُونُ الْمَاءُ غُصَّةً صَادِي  
فِيهَا لَعَيْرٍ تَشْتَبِتُ وَنَفَادِ!  
فِي نَوْحِ بَاكِ أَوْ تَرْتَمُ شَادِي  
وَلذِيذُهَا يُجْنَى مِنَ الْإِجْهَادِ  
فِي إِثْرِهِ عَيْدٌ مِنَ الْأَعْيَادِ  
عَيْدُ الْيَزِيدِ وَعَيْدُ آلِ زِيَادِ

### ما افتقدته أرض الكنانة بوفاة عاطف بركات

يبدأ الشاعر على الجارم المقطع الثاني من قصيدته بتساؤله المباشر في البيت الخامس عشر عن موت عاطف بركات بينما الأمل منتظر منه، وعن موته في الميدان، وعن موته مع اقتراب النصر ثم يبدأ في الحديث الأسيف على ما تفقده أرض الكنانة بوفاة عاطف بركات، فقد كان ماؤه حياة، وعمره ذخيرة، وكان كالمطر، وكانت حياته حافلة بالمجد على الرغم من أنه لم يُعمر على نحو ما اشتهى محبوبه.

١٥. أَيْمُوتُ عَاطِفٌ، وَالكَنَانَةُ تَرْتَجِي  
١٦. أَيْمُوتُ فِي الْمَيْدَانِ، لَمْ يُعْمَدْ لَهُ  
١٧. أَيْمُوتُ، وَالنَّصْرُ الْمُبِينُ مُلَوِّحٌ  
١٨. وَيَغِيضُ مَاءً كَانَ أَيْسَرُ قَطْرَةٍ  
وَتَبَاتِيهِ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ جَلَادِ؟  
سَيِّفٌ، وَلَمْ يُخْلَعْ نِيَاطُ نِجَادِ؟  
بِلَوَائِهِ لَطَّلَاعُ الْأَجْنَادِ؟  
مِنْهُ حَيَاةٌ خَلِيقٍ وَبِلَادِ؟

١٩. عُمُرٌ إِذَا قَلَّتْ سِنُوهُ، فَإِنَّمَا  
 ٢٠. كَالعِطْرِ تَجْمَعُ قَطْرَةٌ مِنْ مَائِهِ  
 ٢١. كَمْ مِنْ قَتِيٍّ فِي التُّرَابِ، وَخَلْفَهُ  
 ٢٢. وَمُعَمَّرٌ عَبَّرَ الوُجُودَ، فَمَا رَنَا  
 ٢٣. عُمُرُ الرَّجَالِ يُقَاسُ بِالمَجْدِ الَّذِي  
 آثَارُهُنَّ كَثِيرَةُ التَّعْدَادِ  
 زَهْرًا، يَنْوَأُ بَغْضَنِهِ المَيَّادِ  
 ذِكْرٌ يُزَاحِمُ مَنَكِبَ الأَبَادِ!  
 طَرْفٌ إِلَيْهِ وَلَا بَغَى لِبَعَادِ  
 شَادُوهُ، لَا بِتَقَادِمِ المِيْلَادِ

### وهب الحياة لقومه على الرغم من نُصح الطبيب

وفي المقطع الثالث (بدءاً من البيت الرابع والعشرين) يبدأ الشاعر على الجارم في تعزية مجتمع المعارف، مواصلاً في الوقت نفسه الحديث عن مناقب عاطف بركات ومعاضدته للعلم والأخلاق معاً، وعن كفاحه، وعن مغالبتة للمرض وللزمان معاً، وعن تصميمه الذي لم يتأثر بالأيام، وعن عمله من أجل غايته، وعن مواصلته العمل ليلاً نهاراً واهبا الحياة لقومه، على الرغم من نُصح الطبيب:

٢٤. عَزَّ (المعارف) مُطْرَقًا فِي عَاطِفِ  
 ٢٥. لِلعِلْمِ وَالأَخْلَاقِ كَانَ مُعَاضِدًا  
 ٢٦. مَا زَالَ يَكْدُحُ، وَالأَخْطُوبُ بِمَرْصِدِ  
 ٢٧. لَمْ تُثْنِيهِ الأَلَامُ عَنْ غَايَاتِهِ  
 ٢٨. فَاللَّيْلُ مَوْصُولٌ بِيَوْمِ حَافِلِ  
 ٢٩. وَكَأَنَّمَا نُصِحَ الطَّبِيبُ بِسَمْعِهِ  
 ٣٠. وَهَبَ الحَيَاةَ كَرِيمَةً لِبلَادِهِ  
 زَيْنِ الفِنَاءِ وَسَيِّدِ الأَنْدَادِ  
 فَطَوَى الحَيَاةَ وَفَتَّ فِي الأَعْضَادِ  
 وَالدَّاءُ يَطْعَى، وَالزَّمَانُ يُعَادِي  
 أَوْ تَلُوهُ الأَسْقَامُ دُونَ مُرَادِ  
 وَاليَوْمُ مَعْقُودٌ بِلَيْلِ سُهَادِ  
 هَذَرُ الوُشَاةِ، وَرُفْرَةُ الحُسَادِ  
 وَمَضَى إِلَى الأُخْرَى صَرِيحَ جِهَادِ

ويختتم الشاعر على الجارم هذا المقطع ببيت من أبيات الحكمة الجارمية الجميلة و هو البيت الحادي والثلاثون الذي يقول فيه إنك إذا بذلت لمصر كل شيء إلا الحياة، فما أنت بجواد.

٣١. وَإِذَا بَدَلْتَ لِمِصرَ كُلَّ عَزِيْزَةٍ  
 إِلَّا الحَيَاةَ، فَأَنْتَ غَيْرُ جَوَادِ

### وصف الجارم لجنابة عاطف بركات

في المقطع الرابع من القصيدة بدءاً من البيت الثاني والثلاثين يتحدث الشاعر على الجارم بضمير المشاهد أو الراوي فيصف جنابة عاطف بركات وقد حملوا الوديعه الخيرة فيها، وقد سار من حول هذه الوديعه الغالية جموع من عليه القوم ثم يصف سير الجنابة في بيت من أربعة أجزاء متساوية من الأبيات التي كان الشاعر على الجارم يهفو إليها من حين لآخر فيقول: إن الصبر ناء، والرؤوس خاشعة، والدمع

جار ، والقلوب صوادي وهذه هي المرة الثانية في هذه القصيدة التي يستخدم فيها صفة الصوادي بعدما استخدمها في البيت الأول، وهناك وصف بها النفوس وهنا في البيت الرابع والثلاثين يصف بها القلوب، وهو ما يؤكد ما نذهب إليه من أن عقلية المؤمنين الواعين بالحياة العقلية والعصبية لا تفصل بين النفوس والقلوب وإنما قد تنظر إليهما على أنهما شيء واحد.

٣٢. حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ خَيْرَ وَدِيعةٍ  
 ٣٣. فِي رُكْبِهِ زُمُرُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا  
 ٣٤. وَالصَّبْرُ نَاءٌ، وَالرُّءُوسُ خَوَاشِيعُ  
 ٣٥. حَمَلُوا عَلَى النَّعْشِ الْكَرِيمِ، سُلَالَةَ  
 الـ

٣٦. وَتَحْمَلُوهُ لِيَدْفِنُوا تَحْتَ الثَّرَى  
 ٣٧. حَفَّ الشَّبَابُ بِهِ، وَفِي عَبْرَاتِهِمْ

ويعود الشاعر على الجارم في المقطع الخامس ليخاطب عاطف بركات بعد أن كان يصف جنازته وهو يخاطبه بصفاته التي استتبطها بعد تأمل في أفعاله فهو يراه صاحب همة تتوجه إلى الأمل البعيد، وهو في الوقت ذاته صاحب عقيدة راسخة، وهو صاحب حق لا يُجامل فيه مهما امتدحه طلاب الحاجات، وهو صاحب العزيمة التي لم تتأثر بأي مؤثر رغم تغير الظروف، وهي عزيمة حادة مسنونة قادرة على الإنجاز، كما أنها ، وهذا هو الأهم ، عزيمة واثقة بالخالق القدير ، وهو يشير إشارة سريعة إلى أن عاطف بركات كان من الذين نفوا (كما نعرف مع الزعيم سعد زغلول باشا ) إلى سيشيل ، لكنه كان هصوراً لم تؤثر فيه قيود النفي ولا عسف الإنجليز.

٣٨. يَا رَامِي الْأَمَلِ الْبَعِيدِ بِهَمَّةٍ  
 ٣٩. وَعَقِيدَةٍ لَوْ صَوَّرْتَ بِمُمَاتِلِ  
 ٤٠. لَمْ يَزُهَا ضَافِي الْمَدِيحِ، وَلَمْ تَكُنْ  
 ٤١. وَعَزِيمَةً لَا الزُّجْرُ نَهْنَهُ هَمَّهَا  
 ٤٢. كَادَتْ تَدُورُ مَعَ الْكَوَاكِبِ دَوْرَهَا  
 ٤٣. كَانَتْ أَحْزَى مِنَ الْمُدَى، وَأَحَدٌ مِنْ  
 ٤٤. وَثِقَتْ بِخَالِقِهَا الْقَدِيرِ فَشَمَّرَتْ  
 ٤٥. «سَيْشِيلُ» مِنْهُ رَأَتْ هَصُورًا يَزْدَرِي

شَمَاءَ تُدْرِكُ غَايَةَ الْأَبْعَادِ  
 كَانَتْ تَكُونُ رَصَائِنَةَ الْأَطْوَادِ  
 فِي الْحَقِّ تَرَهَّبُ صَوْلَةَ النَّقَادِ  
 يَوْمًا وَلَا فُلَّتْ، مِنْ الْإِيْعَادِ  
 بِالنَّحْسِ أَوْنَةً وَبِالْإِسْنَعَادِ  
 غَرَبَ الظُّبْيِ يُسَالِّنُ يَوْمَ طِرَادِ  
 مَحْمُودَةَ الْإِصْدَارِ وَالْإِيرَادِ  
 أَلَمَ الْإِسَارِ، وَقَسْوَةَ الْأَصْفَادِ

### ينظر إلى المحيط نظرة الصقر

ونرى الشاعر على الجارم بثقافته المستمدة من رحلاته البحرية يستحضر صورة عاطف بركات في المنفى ينظر إلى المحيط (الهندي) نظرة الصقر من دون أن يتأثر بقسوة الطبيعة ، ولا قسوة الظروف .

٤٦. لَهْفِي عَلَيْهِ، وَالذِّيَارُ بَعِيدَةٌ      وَخَيَالُ مِصْرَ مَرَاوِحُ وَمُغَادِي  
٤٧. مُتَوَتِّبًا نَحْوَ الْمُحِيطِ كَأَنَّهُ      صَفْرُ الْفَلَاةِ بِكِفَّةِ الصَّيَادِ  
٤٨. مَا دَكَّهُ عَصْفُ الْخُطُوبِ وَلَا      لَزَعَاذِ الْإِبْرَاقِ وَالْإِرْعَادِ  
وَتَسْوِي

### من كان سعد خاله

وهو يختم هذا المقطع بمدح سعد زغلول باشا الذي هو خال عاطف بركات، بل إنه يجعل من هذه الصلة سبباً يفك شفرة التعجب والإعجاب بمدى قوة عاطف بركات وقوة شخصيته:

٤٩. لَا تَعْجَبُوا، مَنْ كَانَ سَعْدُ خَالَهُ      أَلْقَتْ لَهُ الْأَخْلَاقُ كُلَّ قِيَادِ  
٥٠. سَعْدُ الَّذِي غَرَسَ الْمُهَيْمُنُ حُبَّهُ      فِي كُلِّ جَارِحَةٍ وَكُلِّ فَوَادِ

### يلقبه بمحيي القضاء

في المقطع السادس يبدأ الشاعر على الجارم حديثاً أقرب إلى الهدوء النفسي متخذاً مقعد الراوي فيتحدث عن وفاة عاطف بركات ( ملقبا إياه بمحيي القضاء ) على أنها وفاة مبكرة، وأن المنون وثبت عليه ، وكذلك الزمان ، لكنه سرعان ما يعود إلى مخاطبة عاطف بركات في ثالث أبيات هذا المقطع متحدثاً عن أمجاده أو عن أمجد أمجاده وهو تأسيسه لمدرسة القضاء الشرعي وهو يسميها بلغة الشعر داراً للقضاء، وسرعان ما يضعها في بيت من الشعر و يتحدث عنها بأنها أصبحت عماداً للدين والأخلاق . وهو يقرر ما نكاد نحن وأسلافنا نشاركه فيه من أن هذا الإنجاز الذي أنجزه عاطف بركات في مدرسة القضاء الشرعي يكفيه فخراً، لكن الشاعر على الجارم ينسب هذا التقدير إلى يوم الحساب أيضا (في البيت الرابع والخمسين)

٥١. مُحْيِي الْقَضَاءِ رَمَاهُ فِي رِيْعَانِهِ      سَاهَمُ الْقَضَاءِ، فَمَا لَهُ مِنْ فَادِي!  
٥٢. وَثَبْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُنُونِ غَوَائِلُ      وَعَدَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الزَّمَانِ عَوَادِي

٥٣. شَيَّدَتْ دَارًا لِلْقَضَاءِ فَأَصْبَحَتْ  
٥٤. لَوْ لَمْ تَجِئْ يَوْمَ الْحِسَابِ بِغَيْرِهَا  
لِلدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ خَيْرَ عِمَادٍ  
لَسَمَوْتَ فَوْقَ مَنَازِلِ الْعُبَادِ

### أثر عاطف بركات في تلاميذه

ثم يتحدث الشاعر على الجارم بذكاء ومهنية تربوية عن الأثر الحقيقي لعاطف بركات باشا في تلاميذه فيقول إن هذا الرجل الذي يخاطبه بشعره بث في الشيوخ الذين خرَّجهم هدى النبوة، والتمسك بالأخلاق، مع التأكيد على سماحة الدين، ومقصد الخير.

٥٥. وَبَثَّتْ رُوحَكَ فِي الشُّيُوخِ، فَكَلَّمَهُمْ  
٥٦. وَبَنَيْتَ بِالْأَخْلَاقِ مِنْهُمْ دَوْلَةً  
٥٧. الدِّينُ سَمْحٌ، إِنْ سَأَلْتَ سَبِيلَهُ  
٥٨. فَلَكُمْ رَأِينَا فِي الْمَعَابِدِ أَشْعَبًا  
دَاعٍ إِلَى نُورِ النُّبُوَّةِ هَادِي  
بَلَّغْتَ بِحَوْلِكَ أُبْعَدَ الْأَمَادِ  
لِلْخَيْرِ، لَا لِلشَّرِّ وَالْإِفْسَادِ  
لِلخَثْلِ يَلْبَسُ بُرْدَةَ الزُّهَادِ

### من أين يأتي بديل لعاطف بركات؟

ويواصل الشاعر على الجارم هذا الحديث الدقيق عن شمائل عاطف بركات في المقطع الأخير من قصيدته فيشير إلى أن الأرقام فزعت لوفاة عاطف بركات باشا، وكذلك المنابر والأشعار.. وكأنه بهذا استغرق وصف كل ردود الفعل الثقافية على فقدان ذلك العلم العظيم، ثم هو يتساءل من أين يأتي بديل لعاطف بركات باشا في ضوءه ووجهه وخبرته ونور يقينه، وزاده الإيمان والفكري.

٥٩. فَزَعَتْ لَكَ الْأَقْلَامُ فَوْقَ طُرُوسِهَا  
٦٠. وَتَكَادُ تَلْتَهُبُ الْمَنَابِرُ حَسْرَةً  
٦١. وَالشُّعْرُ أَضْحَتْ هَاطَلَاتُ دُمُوعِهِ  
٦٢. مَنْ لِي، وَظِلُّ الْمَوْتِ دَاجٍ بَيْنَنَا  
٦٣. مَنْ لِي بِذَلِكَ الْوَجْهِ، بَيِّنَ غُضُونِهِ  
وَمِنَ الْمَدَادِ لَيْسَنَ ثَوْبَ حِدَادِ  
لَمَّا رَحَلْتَ، عَلَى خَطِيبِ إِيَادِ  
بَحْرًا، فَنَاحَ عَلَيْكَ فِي الْإِنْشَادِ  
بِضِيَاءِ ذَاكَ الْكَوْكَبِ الْوَقَادِ!  
أَسْطَارُ أَسْرَارِ الْحَيَاةِ بُوَادِي!

### يا من كنت تطلب نور اليقين

ثم يخاطب الشاعر على الجارم عاطف بركات باشا معتمداً على المعنى القرآني الذي يصف الموت بأنه اليقين فيقول له جاءك اليقين يا من كنت تطلب نور اليقين، وها أنت تمضي إلى أخراك بزاد وافر من الأعمال الصالحة، تستريح من المرض وتستريح أيضا لارتداء ثوب الخلود.

٦٤. يا طالبًا نُورَ اليَقِينِ حَيَاتَهُ  
٦٥. واملأ جُفونَكَ بالكَرَى فِي غِبْطَةٍ  
٦٦. واخْلَعْ ثِيَابَ الداءِ عَزَّ دَوَاهُ  
جاء اليَقِينُ، فسِرْ بأوْفَرِ زَادِ  
قد كنتَ أَحوجَ سَاهِدِ لِرُقَادِ  
وَالْبَسْ بِعَدْنِ أَنْفَسِ الأَبْرَادِ

### دم الجفون وحرقة الأكباد

لكن الحزن مع هذا يعود ليُغالب الشاعر على الجارم فيختم قصيدته ببيتين مؤثرين يستثيران الدموع وذلك على غير عادته (التي عرفت عنه بعد ذلك) في أن يختم قصائده بالرضا والتسليم ، أما هنا فإنه يتحدث عن دم الجفون وحرقة الأكباد.

٦٧. وأذْهَبْ كما ذَهَبَ الشَّبَابُ مُشِيْعًا  
٦٨. سَحَتْ عَلَيْكَ معَ الجُنُوبِ رَوَائِحُ  
بِدمِ الجُفُونِ وحُرْقَةِ الأَكْبَادِ  
وَهَمَّتْ عَلَيْكَ معَ الشَّمَالِ غَوَادِي

### وفاته

توفي محمد عاطف بركات باشا في ٣٠ يوليو سنة ١٩٢٤ في أثناء عهد وزارة الشعب برياسة خاله.

## الفصل السادس : عمر لطفي بك

### الذي أسس ٤ كيانات عشقها المصريون أشهرها النادي الأهلي

نبدأ بتصحيح أو ضبط بعض المعلومات التاريخية الشائعة على سبيل الخطأ أو الخلل ، حيث يحدث الخلط بين عمر لطفي بك رائد التعاون وأستاذ القانون ، وبين عمر لطفي باشا الذي كان من رجال الخديو توفيق وكان محافظاً للإسكندرية وعادى الحركة الوطنية في اثناء الثورة الرابعة ، وهو أحد المتورطين في مذبحه الإسكندرية الشهيرة ١١ يونيو ١٨٨٢ ، التي قتل فيها ٥٠ من الأوربيين و ٢٥٠ من المصريين، وقد استقر رأي الأدبيات الوطنية على أن الخديو توفيق كان متورطاً في هذه المذبحة من خلال عمر لطفي محافظ الإسكندرية ، وقد أصبحت هذه الحادثة هي مُبرّر هجوم الجيش البريطاني على مصر. ومن الجدير بالذكر أن عمر لطفي الذي مات في الرابعة والأربعين لم يُدرك الباشوية، ولهذا فإنه يُمكن التفرقة بينه وبين عمر لطفي محافظ الإسكندرية الذي تعتبره الحركة الوطنية خائناً لها وللوطن وللثورة العربية، بأنه هو البك، على حين أن محافظ الإسكندرية هو الباشا .

يحمل أعلام آخرون اسم عمر لطفي ومنهم مندوب مصر الدائم في الأمم المتحدة، وقد علمت من أساتذتنا الدكتور أحمد أبوزيد والدكتور مصطفى العبادي أن شارع عمر لطفي الشهير في منطقة كليوباترا سمي تخليداً لهذا الدبلوماسي المصري.

### تكوينه العلمي

ولد الزعيم الوطني عمر بك لطفي في الإسكندرية ١٨٦٧ وترجع أصوله إلى المغرب، إلى حد أن كبير هذه الاسرة (أو والده هو نفسه) كان مُمثل المغرب لدى مصر قبل أن تُعرف الدبلوماسية بالنمط التقليدي.

وقد تلقى عمر بك لطفي تعليمه في مدرسة الجمعية الخيرية في الإسكندرية، وهي المدرسة التي أسسها الأستاذ الشيخ عبد الله النديم، ثم انتقل إلى القاهرة فدرس في مدرسة الفرير، وهكذا جمع بين التعليم المدني والتعليم الفرنسي، والتحق بعد هذا بمدرسة الحقوق فتخرّج في سن مبكرة (في التاسعة عشرة من عمره حسب أوراقه) في ١٨٨٦.

## مقارنته بطلعت حرب باشا

فيما بين القانونيين الاقتصاديين، فإن عمر لطفي هو رائد الخط الموازي لطلعت حرب في دراسة القانون ثم في ممارسة الاقتصاد، وعلى حين ان العمر لم يمتد بعمر بك لطفي، فإنه وضع بصمات مهمة ومؤثرة كأب مؤسس للحركة التعاونية في مصر، على نحو ما نجح زميله طلعت حرب في أن يكون أباً للحركة المصرفية في مصر، وباختصار شديد ، فإنه إذا كان لتعامل السياسة والقانون مع حركة الأموال وتوظيفها منطلقان اجتماعي واقتصادي، فإن عمر لطفي هو رائد المنطلق الاجتماعي وطلعت حرب هو رائد المنطلق الاقتصادي.

## تفوقه القانوني المبكر

نال عمر بك لطفي شهرة مبكرة لتفوقه في المحاماة، بعد أن بدأ العمل الحكومي في مكتب قضايا الحكومة ، الذي كان العمل فيه بمثابة دليل على التفوق والصلاحية للوظائف القانونية والعامّة على حد سواء.

وقد أثر عمر بك لطفي أن يترك العمل الوظيفي ويُمارس المحاماة من خلال مكتب سعد زغلول باشا، ثم وقع عليه الاختيار ليعمل بالقضاء، فأصبح قاضياً في محكمة قنا، لكنه سرعان ما انتقل ليعمل بالتدريس في كلية الحقوق، وارتفع شأنه في الأستاذية وأصبح وكيل كلية الحقوق، ومارس تدريس القانون الجنائي والإجراءات الجنائية، ودام عمله وكيلاً لكلية الحقوق ١٦ عاماً متصلة.

هكذا جمع عمر بك لطفي ما لم يجمعه غيره من التلمذة المباشرة (والمتفاعلة) لثلاثة من الأقطاب لم يجمع أحد فضلهم على نحو ما جمعه هو:

- لسعد زغلول (في مكتبه الخاص بالمحاماة).
- لعبد الله النديم (في المدرسة) التي أسسها الشيخ عبد الله النديم وفيها حفظ عمر لطفي القرآن الكريم .
- لصديقه الذي يصغره في السن مصطفى كامل باشا (في الحزب الوطني).

## دوره البارز في الحياة العامة و السياسية

خرج عمر بك لطفي إلى الحياة العامة بأربعة أفكار لامعة حَقَّقَ فيهما أقصى ما كان يُمكنه من النجاح في جيله وفي سنه.



كانت الفكرة الأولى التي أخلص لها عمر بك لطفي ، فهي فكرة التعاون، بمعناه الاصطلاحي ، وما يستتبعه من مؤسسات وأدبيات و توجه مجتمعي ، وما يتصل بتطبيقات هذه الفكرة (أو تجلياتها العملية) من إنشاء نقابات (أو جمعيات ) التعاون وتنظيم و نشر الحركة التعاونية، وقد دفع عمر لطفي إلى أن يبذل جهده في هذا الميدان شعور نبيل تمثل في تعاطفه مع الفلاح المصري وما عاناه من جراء الأزمة الاقتصادية التي جرت في ١٩٠٧ ، وما أدت إليه تلك الأزمة من انتشار نشاط المربين والمضاربين ، وقد درس عمر بك لطفي التجربة الإيطالية في التعاون الزراعي بتوسع ، واقتنع بضرورة الأخذ بما أخذت به ألمانيا وإيطاليا من إنشاء النقابات (الجمعيات) الزراعية التي تتولى مساعدة الفلاحين ، و بدأ يعرض رأيه ، لكن الحكومات القائمة لم توافق على فكرته ، ومن ثم تحوّل بنشاطه إلى الميدان العام ، و بدأ ينشئ ما اختار أن يسميه باسم جميل هو "النقابات الزراعية" لتتولى الإقراض والتسويق التعاوني للحاصلات.

### فكرة التعاون المنزلي

وانتشرت الفكرة التي سماها بالتعاون المنزلي، وامتد نشاط هذه الفكرة إلى الإسكندرية والمنصورة والمنيا والمنوفية وحلوان ، بفضل جهوده في هذا الميدان المهم. وفي هذه الفترة توّطدت علاقته بالزعيم مصطفى كامل باشا ، فكان كلاهما مؤيداً للآخر في مسعاه، وهكذا أصبح عمر بك لطفي أيضاً من قادة الحزب الوطني البارزين.

### فكرة العمل النقابي

الفكرة الثانية هي فكرة العمل النقابي بالمعنى الواسع للنقابة، فقد ارتبط بنشاط عمر لطفي في الحركة التعاونية نشاط آخر كان طبيعياً أن يخوضه، وهو نشاط النقابات العمالية، فكان هو أول مؤسس لأول نقابة عمالية، وهي نقابة عمال المصانع اليدوية، التي تطوّر نشاطها فيما بعد وشاركت في الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩ مشاركة فاعلة وبارزة.

### فكرة نادي المدارس العليا

وعمر بك لطفي ثالثاً هو صاحب فكرة نادي المدارس العليا الذي يُماثل ما عُرف بعد ذلك في بريطانيا والمستعمرات البريطانية تحت اسم مؤتمر الخريجين أو نادي

الخريجين، وقد انتخب رئيساً لهذا النادي الذي كان له دور كبير في الحركة الوطنية فيما قبل الحرب العالمية الأولى.

وقد بدأ عمر بك لطفي ومصطفى كامل باشا خطوات إنشاء نادي المدارس العليا في أكتوبر سنة ١٩٠٥، وبعد أن تم جمع رأس المال اللازم لبناء النادي، انعقدت أول جمعية تأسيسية لنادي طلبة المدارس العليا في يوم الجمعة ٨ ديسمبر ١٩٠٥ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادي وكانت نتيجة الانتخاب هي اختيار عمر لطفي بك رئيساً للنادي. وفي يوم الافتتاح ألقى عمر لطفي بك خطبة شهيرة .

وقد أعجب الناس جميعاً بالنادي ونظامه، وخلال ثلاثة أعوام فقط تضاعف عدد أعضاء النادي. كما أصبح بمثابة مركز العقل الذي تجمع حوله أبطال الحركة الوطنية، بل كانت المظاهرات ضد الاحتلال الإنجليزي عند أي حادث وطني تخرج منطلقاً من مقر النادي ، وهكذا كوّن عمر بك لطفي ما يمكن تسميته في تاريخ الحركات الوطنية ببؤرة النشاط الفاعل، ومركز الالتقاء الثابت، ومحطة الانطلاق المتجدد. وليس هذا في تاريخ أية حركة وطنية بالأمر اليسير.

### فكرة النادي الأهلي

أما الفكرة الرابعة التي أصبحت الآن تفوق الأفكار الثلاثة السابقة جاذبية وأثراً وجماهيرية ، فهي فكرة إنشاء النادي الأهلي ، وقد راودته هذه الفكرة من خلال موقعه في رئاسة نادي المدارس العليا، إذ أنه كان من الطبيعي ان يتحول النادي الاجتماعي إلى أب لنادي رياضي (على نحو ما هو معروف الآن في مصر بالعكس من تحوّل الأندية الرياضية إلى أندية اجتماعية)، وكان الهدف هو إيجاد مكان يضم الشباب بعد تخرجهم لتمضية أوقات الفراغ ، وحتى لا يمضي كل منهم إلى قريته ، و ينقطع النادي عن الاتصال بهم عند حاجة الوطن لهم لمواجهة الإنجليز ، و هكذا كانت فكرة إنشاء النادي الأهلي فكرة يتمثل فيها الباعث الوطني في المقام الأول .

وقد كان عمر لطفي من الذكاء ونكران الذات، بحيث عمل على إسناد رئاسة النادي الأهلي في أول عهده إلى ميشيل أنس، وبقي ومعه عدد من قادة الحركة الوطنية يرعون الفكرة ويطورونها، حتى أصبحت هي ذلك الكيان الضخم العظيم.

## عبد الخالق ثروت يسجل فضل عمر لطفي

تحدث السياسي الكبير عبد الخالق ثروت باشا رئيس النادي الأهلي، ورئيس الوزراء في نهاية أعمال إحدى الجمعيات العمومية للنادي الأهلي ، بما يمكن وصفه بأنه قصيدة رثاء ومديح في عمر لطفي بك، وذلك حيث استطرده ثروت باشا فقال:

" الآن وقد انتهينا من أعمال الجمعية العمومية، فإني أنتهز هذه الفرصة لألقى على حضراتكم كلمة عن تاريخ هذا النادي؛ فإن تفضلتم وسمحتم بذلك ، فإن أول ما ينطق به لساني في هذا الحديث هو اسم المرحوم عمر لطفي بك، ذلك لأنه الواضع لهذا النادي وصاحب الفكرة في تأسيسه. كان المرحوم عمر بك لطفي وكيلاً لمدرسة الحقوق، وكنت في ذلك العهد موظفًا بوزارة الحقانية، فكنت معه بحكم وظيفتنا في علاقة مستمرة، وكان رحمه الله على ما تعلمون كثير الاشتغال بأمور الشبيبة عظيم الاهتمام بأحوالهم وبكل ما يعود عليهم بالفائدة."

" حضر ذات يوم وقال لي إنه كثيرًا ما فكر في أحوال طلبة المدارس العالية وكيفية تضييتهم لأوقات فراغهم، وفي علاقات خريجها بعضهم ببعض، فرأى أن بعضًا من الطلبة يقضون أوقاتهم في المحال العمومية ليس لهم من أنواع الرياضة غير الجلوس في المقاهي، وأن البعض الآخر ، وهو من يرى الترفع عن ذلك يعتكف في منزله، وأن الطلبة بمجرد إتمام دراستهم واشتغالهم بأمور معاشهم إذا ما تفرقوا في البلاد وبعدها عن القاهرة انقطعت بينهم أسباب الألفة وأصبحوا غرباء بعضهم عن بعض".

## ثروت باشا يشهد بأن تصميمه هو الذي حقق النجاح

"شكا إلى تلك الحال وما يترتب عليها من المضار الأدبية والمادية، وقال إنه يرى خير دواء لها تأسيس فناء في نقطة صحية خارج المدينة تكون منتدى لطلبة المدارس العليا ومتخرجيها يقضون فيه أوقات فراغهم ويتمرنون فيه على الألعاب الرياضية. ويكون للطلبة الذين قضى عليهم جهاد الحياة أن يكونوا خارج القاهرة واسطة في الاجتماع بإخوانهم المقيمين فيها كلما سنحت لهم فرصة العودة إليها."

"لم أتردد لحظة في الحكم بأن تحقيق هذه الفكرة هو خير ما نخدم به الشبيبة المصرية، ولكني لا أخفى عليكم أن أملى في نجاح المشروع كان أقل بكثير من تخوفي من عدم إمكان تنفيذه، أو من سقوط النادي بعد تأسيسه، وعذري في هذا التخوف أنني جربت في حكمي هذا على قياس الحاضر بالغايب، والمستقبل بالماضي،

فكم من مشروعات وطنية قامت بضجة عظيمة وأقبل عليها الناس أيما إقبال، لكنها ما لبثت أن أخذت في التلاشي والفناء حتى أصبحت أثرًا بعد عين.

" ولم أزد مع ذلك أن أثبط همته بمخاوفي هذه ، وقلت في نفسي لعل في هذه الحركة بركة، واتفقنا على العمل فسعى رحمه الله حثيثًا حتى وفق في تشكيل نقابة أخذت على عاتقها دفع المال لتأسيس النادي وقد تأسس بالفعل.»

### شهادة الأستاذ فكري أباطة

وقد عقب رجل النادي الأهلي الكبير الأستاذ فكري باشا أباطة على حديث رئيس النادي عبد الخالق ثروت باشا بقوله:

"بصفتي الشخصية أشكر معالي الوزير الخطير على تصريحاته العظيمة ونصائحه الثمينة وأشكره على أحياء ذكرى المربي المرحوم عمر لطفي بك، الذي فكر في إنشاء هذا النادي ونادي المدارس العليا، نشكره من كل قلوبنا وندعو الله أن يوفق كبارنا وعظماءنا إلى المشروعات النافعة.

### قيمه الفكرية

نأتي إلى الأهم من هذا كله، وهو قيمة عمر بك لطفي كمفكر ومؤثر. ونبدأ بلمحة طريفة وهي أن مجلة " الإثنين والدنيا " أجرت استفتاء عن أعظم عشرة رجال في تاريخ مصر في خمسين سنة، وكان المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراجحي المعروف بتعصبه للحزب الوطني من بين من استطلعت المجلة رأيهم، وقد اختار أستاذنا الراجحي عمر بك لطفي ليكون في الترتيب التاسع بعد مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعلي مبارك والشيخ عبد الله النديم والشاعر أحمد شوقي والشاعر حافظ إبراهيم وقبل العاشر طلعت حرب.

ومن الإنصاف أن نُشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن عمر بك لطفي كان واحداً من الذين عرفوا العالم الغربي مُبكرًا بالفكر القانوني الإسلامي ، فقد كتب بالفرنسية دراسات تعريفية مهمة نقل عنها الغربيون وانتفعوا بها، وطوّرت فكرهم التشريعي والقانوني ، قبل أن تأتي عصور الترصد بالإسلاميين، وقيل أن تأتي عصور التوظيف الإمبريالي للمعرفة البشرية التي اكتسبتها البشرية من عقيدة ربانية.

## أول من تناول حقوق المرأة في الإسلام

وعلى سبيل المثال، فقد كان عمر لطفي قبل قاسم أمين وطلعت حرب أول من تناول حقوق المرأة في الإسلام في محاضرة عامة، وأوضح فيها حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية وقارن بينها وبين حقوق المرأة الغربية في ذلك الوقت، وكيف أن الجنس اللطيف، كما كانوا يسمونه، وجد من الشريعة الإسلامية حماية لم يجدها في القوانين القائمة في الوقت نفسه.

وقد ألقى عمر بك لطفي هذه المحاضرة باللغة الفرنسية عام ١٨٩٦.

## أثاره

تُسجل المراجع والفهارس لعمر لطفي كتابات مُبكرة ، لا بد من أن يقوم أولو العلم بجمعها وإخراجها ونشرها في مجموعة الأعمال الكاملة:

- الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية.
- حركة المساكين.
- حق المرأة.
- حق الدفاع.
- الامتيازات الأجنبية.
- الوجيز في شرح القانون الجزائري.

هذا فضلاً عن كتابه الأشهر الذي كان بمثابة دستور مبكر لعمل الحركات التعاونية: «شركات التعاون في مصر»

## قصيدة أحمد شوقي في رثاء عمر لطفي

هذه هي قصيدة أحمد شوقي في رثاء عمر لطفي ، وفيها يُظهر أمير الشعراء حسرته من أن تكون الأرض مثوى لهذا القمر الساطع الذي لمع في سماء مصر، وهو يطلب من مُستمعي قصيدته أن يسألوا أرض القبر هل تزيّنت بما يليق باستقبالها لعمر لطفي؟، وهل استعدّت حفرتها لتكون له بمثابة الجنان؟ وهل قام حارس الجنة رضوان ليلقى عمر لطفي بما يستحقُّ من ثواب الله على نقائه وبرّه بوطنه.

قفوا بالقبور نَسَائِلُ عُمُرْ      متى كانت الأَرْضُ مَثْوَى القَمَرِ؟  
سلوا الأَرْضَ: هل زَيَّنَتْ للعلي      مـ وهل أَرَجَتْ كالجنان الحفر؟



رثيئك لا مالكاً خاطـري  
 ففئك عرفتُ ارتجالَ الدموعِ  
 ومثلك يُرئى بأيّ الكتابِ  
 فيا قبرُ، كنّ روضةً من رضى  
 سقتك الدموعُ، فإن لم يدمن  
 من الحزن، إلا يسيراً خطـر  
 ومنك علمتُ ارتجالَ السـدر  
 ومثلك يُفدى بنصف البشـر  
 عليه، وكنّ باقةً من زهر  
 كعادتهنّ سقاك المطـر

### وفاته المبكرة

كان من مجريات التاريخ وأحكام القدر أن عمر لطفي توفي في الرابعة والأربعين من عمره في ١٤ نوفمبر ١٩١١، فلم يشهد ثورة ١٩١٩ وكان وضعه في هذا شبيهاً باتنين من نظرائه من أعلام الفكر القانوني الذين توفوا مبكرين ولم يشهدوا الثورة ، وهما قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) ، وأحمد فتحي زغلول (١٨٦٣ - ١٩١٤). وقد لحق هؤلاء بمن هو أكثر حضوراً منهم في تاريخنا الوطني وهو أبرز الزعماء المفكرين الذين توفوا في شبابهم وهو مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) و من الجدير بالذكر في هذا المقام أن هؤلاء توالى وفياتهم على النحو التالي:

- مصطفى كامل ١٠ فبراير ١٩٠٨ عن ٣٤ عاماً
- قاسم أمين ٢٣ أبريل ١٩٠٨ عن ٤٤ عاماً
- عمر لطفي ١٤ نوفمبر ١٩١١ عن ٤٤ عاماً
- أحمد فتحي زغلول ٢٧ مارس ١٩١٤ عن ٥١ عاماً

## الفصل السابع أحمد فتحي زغلول

### المفكر الذي أفقدته دنشواي كل الثناء والمجد

كان أحمد فتحي زغلول باشا ١٨٦٣-١٩١٤ مثقفا ومفكرا مصريا متميزا ، وكان من رجال القانون والقضاء النوابغ وكان حريا بتخليد الشعب له بين مفكريه وأعلامه لو أنه كان قد نجح في اجتياز اختبار اللحظة الفاصلة التي تتمايز فيها معادن الرجال ، وهو الاختبار الشبيه بالاختبار الذي تعرض له تلاميذه الأقل قيمة منه يوم وقع الانقلاب العسكري فانحازوا إليه حفاظا على ما يظنونه مميزات طبقية تحققت لهم ولأولادهم .

### دنشواي أفقدته كل مجده

خسر أحمد فتحي زغلول باشا كل مجده العلمي و القانوني والوطني والثوري حين انحاز ضد الشعب فقبل أن يشترك في إصدار أحكام الإعدام والجلد علي فلاح دنشواي و كان عضوا في المحكمة المخصصة التي شكلها الإنجليز و رأسها بطرس غالي باشا وضمت معهما قاضيين أجنيين ، ومنذ ذلك الحين وبهذا السبب سقطت مكانته في الوجدان المصري مهما قيل عن فهمه و تحديثه وإسهامه .

وعلي الرغم من المكانة التي وصل إليها شقيقه الأكبر سعد زغلول وعلى الرغم من زعامة سعد زغلول الأسرة فإن حب الشعب لسعد زغلول باشا لم يشفع لشقيقه بأية صورة حتى الآن.

والأكثر من هذا مدعاة للتأمل أن بدايات أحمد فتحي زغلول باشا الثورية في ثورة عرابي لم تشفع له علي الرغم من أنه كان قد فصل من المدارس بسبب نشاطه الثوري .

و لم يشفع لأحمد فتحي زغلول باشا أنه أسهم في وضع بعض القوانين المصرية وأن هذه القوانين أفادت مما كان له من دراية عميقة و موثقة بالنظم والقوانين المختلفة في دول أوروبية كثيرة، وهو ما أهله لأن يكون من أفضل المشرعين لما عرف به من الدقة في صياغة التشريعات وفي المؤلفات القانونية.



### تصحيح الشاعر محمود غنيم للرواية الشائعة عن أبيات لأمير الشعراء

صح الأستاذ محمود غنيم نسبة الأبيات الشائعة في هجاء أحمد فتحي زغول باشا فنسبها للشاعر احمد الكاشف مع أن الشائع والذائع هو نسبتها لأمير الشعراء أحمد شوقي، وانه نظمها لما طُلب منه أن يشترك في حفل نُظم لتكريم أحمد فتحي زغول باشا بمناسبة توليه منصب وكيل وزارة الحفانية ، وقد سخر صاحب هذه الأبيات من فكرة تكريم عدو للشعب ، وأرسل بهذه الأبيات الشهيرة للحفل الذي كان سيقام في فندق شبرد غير هياب ولا وجل من سلطة الباشا والدولة والاحتلال :

إذا ما جمعتم أمركم وهمتموا	بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة	وسروال مجلود، وقيد سجين
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه	من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقرأوه في (شبرد) بل اقرأوا	على ملاً في دنشواي حزين

### الموقف الشعبي المتطهر

ومن العجيب الذي يذكر لضمير الشعب المصري باعتزاز أن هذا الموقف الشعبي الذكي والمتطهر تكرر مع كل رجل من رجال القانون وأساتذته الذين خدموا السلطة العسكرية بجبروتها في كل وقت توقع الشعب ممن هم في عداد المثقفين أن ينحازوا إليه لا إلى السلطة الغاشمة .

### فضله في تعريف العرب بالفكر الأوروبي الحديث

من الإنصاف أن نذكر أنه كان لأحمد فتحي زغول باشا فضل كبير في تعريف قراء العربية بكثير من ملامح الفكر الأوروبي الحديث من خلال ترجماته القديرة لأعمال فكرية متميزة، كما أنه أسهم إسهامات قيمة في الأنشطة الاجتماعية والتنويرية ، وقد برزت مساهماته في العمل الأهلي منذ مرحلة مبكرة فكان (١٨٩٢) عضوا مؤسساً في الجمعية الخيرية الإسلامية مع الشيخ محمد عبده وسعد زغول وحسن عاصم، وكان عضواً نشطاً، بل ربما كان أكثر الأعضاء نشاطاً، وقد ظل عضواً في الجمعية حتي وفاته. كما اشترك في تأسيس الجامعة الأهلية ، وفي مجال العمل السياسي والحزبي شارك مع صديقه الحميم أحمد لطفي السيد في تأسيس «الجريدة (١٩٠٧)، وإن ظل محتفظاً بعلاقة ودية مع الخديو عباس حلمي.

## نشأته

كان اسمه في الأصل فتح الله صبري. ولد أحمد فتحي زغلول في ٢٢ فبراير ١٨٦٣ بقرية إبيانة من أعمال مديرية الغربية (في ذلك الوقت، وكفر الشيخ حالياً)، وهو الابن الأصغر للعمدة إبراهيم زغلول، والشقيق الأصغر للزعيم سعد زغلول، أما والدته فكانت من عائلة بركات، وتلقي تعليمه في كتاب القرية، ثم تعلم في رشيد حتى المرحلة التجهيزية.

## الثورة العربية

كان فتح الله صبري تلميذا بالمدارس التجهيزية إبان الثورة العربية، وكان من أبرز الخطباء الذين يحضون علي الثورة مقتدين بأستاذهم عبد الله النديم، ولما احتل الإنجليز مصر تقرر فصله من جميع المدارس بسبب اشتراكه في الثورة، ولكن وزير المعارف أحمد خيرى باشا كان يحبه لنباهته وفصاحته فعمل علي مساعدته علي إتمام دراسته ونصحه بتغيير اسمه حتي يتسنى إدخاله المدرسة ثانية، وكأنه طالب جديد غير فتح الله صبري المفصول من قبل فتسمي بـ«أحمد فتحي» ودخل مدرسة الألسن.

## بعثته

ثم سافر أحمد فتحي زغلول إلي أوروبا لدراسة الحقوق (١٨٨٣)، وحصل علي ليسانس الحقوق (١٨٨٧)، وعاد إلي وطنه ونال أفضل الوظائف المتاحة لأمثاله فعين أولاً في قلم قضايا الحكومة (١٨٨٧)، ثم عمل في النيابة العامة والمحاكم الأهلية، وقد عمل رئيساً للنيابة بأسيوط (١٨٨٩)، ثم رئيساً لنيابة الإسكندرية عين أحمد فتحي زغلول باشا رئيساً لمحكمة المنصورة الأهلية (١٨٩٣)، ونقل رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية (١٨٩٦). وهكذا أصبح من أكبر رجال القضاء المصريين وهو لا يزال في سن مبكرة .  
و في تلك الفترة توثقت علاقته بالمعتمد البريطاني اللورد كرومر ضمن طائفة من المثقفين المصريين الذين عرفهم اللورد وجالسهم .

فلما وقعت حادثة «دنشواي» (١٣ يونيو ١٩٠٦)، قام الإنجليز بتشكيل المحكمة من بطرس باشا غالي بصفته قائماً بعمل ناظر الحقانية رئيساً، وعضوية اثنين من الإنجليز وعضوية أحمد بك فتحي زغلول رئيس محكمة القاهرة الابتدائية، واستمرت

المحكمة في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ يونيو ١٩٠٦، وصدرت الأحكام التي أثارت المصريين والرأي العام الأوروبي، وهوجم فتحي زغلول هجوما مكثفا لاشتراكه في إصدار هذه الأحكام الجائرة، وتباعدت الحركة الوطنية عن تقديره، وفي العام التالي عين وكيلا لنظارة الحقانية (١٩٠٧).

### حفل تكريمه

وفي أثناء حياته وحين كان لا يزال في الخمسين من عمره أقيم لتكريمه حفل كبير (٢٧ يونيو ١٩١٣) في الجامعة المصرية حضره عدد كبير من الأدباء والعلماء ورجال القضاء الأهلي، ورجال القضاء الشرعي.

توفي أحمد فتحي زغلول باشا في ٢٧ مارس ١٩١٤، وأقيم له حفل تأبين رسمي في دار الأوبرا الخديوية (١٨ مايو ١٩١٤) بمناسبة مرور أربعين يوما علي وفاته واشترك في رثائه عدد من الأمراء والوزراء.

### آثاره

كانت مترجمات أحمد فتحي زغلول باشا أشهر من مؤلفاته فقد قام على مدي أكثر من عشرين عاما بترجمة عدة مؤلفات منها

- "سر تقدم الإنجليز السكسون" لادمون ديمولان (١٨٩٩)، وهو أشهر ما ترجمه.

### ترجمته لعيون الفكر القانوني العالمي

لكن فضله الحقيقي يتمثل في ترجمة عيون الفكر القانوني العالمي :

- «أصول الشرائع» لجيرمي بنتام (١٨٩٢).
- «خواطر في الإسلام» لهنري دي كونتري (١٨٩٧).
- «روح الاجتماع» لجوستاف لوبون (١٩٠٩).
- «سر تطور الأمم» لجوستاف لوبون (١٩١٣).

### مؤلفاته

- «المحامية» (١٩٠٠).
- «شرح القانون المدني» (١٩١٣).
- «التزوير في الأوراق».

- «الآثار الفتحية» (١٩١٤) وقد نشر بعد وفاته، وهو مقالات أحمد فتحي زغلول التي جمعها عبد العال حمدان (١٩١٤).

#### من أهم هذه المقالات والخطب

- ماهية اللغة.
- علموا الأمة.
- التمدن والحرية والتمدن والتقدم.
- التمدن والتغريب.
- إصلاح اللغة العربية.

#### مترجمات لم تنشر

وقد ذكر صديقه العظيم أحمد لطفي السيد باشا أنه ترجم عددا من الكتب الأخرى غير ما نشر، وهي:

- «العقد الاجتماعي» لجان جاك روسو.
- «الاقتصاد السياسي» لبورجار.
- «تمدن الغرب» لجوستاف لوبون.
- «جمهورية أفلاطون».
- «الفرد ضد المملكة» لهربرت سبنسر.

## الفصل الثامن : قاسم أمين

### الذي لم يحطم الباستيل لكنه أصبح رمزا للحرية

في عهد ٢٣ يوليو أصبح قاسم بك أمين (ولايزال) يحظى بصورة فريدة في الأدبيات السياسية المصرية، حتى إنه يبدو في هذه الأدبيات نظيرا مصريا لمن حطموا سجن الباستيل ، والسبب في هذا طريف بل في غاية الطرافة وهو أن عصر الشمولية الذي ارتبط بحكم العسكر كان لا بد أن يقدم الحرية في صورة أخرى غير الحرية السياسية ، وهكذا كان الحديث المفضل عن الحرية وحرية المرأة عند أدبيات ثورة يوليو لا يرتبط بأدوارها السياسية وإنما يحبسها في قضية فرعية كقضية الحجاب مع تصوير هذه القضية على أنها هي وهي فقط الحرية ، وهكذا تم استدعاء قاسم أمين إلى مجتمع " الميثاق " الذي قدمه الرئيس عبد الناصر كصيغة ثانية لدستوره الفردي بعد فلسفة الثورة وقبل الصيغة الثالثة المسماة ببيان ٣٠ مارس .

وفي حقيقة الأمر فإن قاسم أمين كان ابن عصره ، لأنه كان فيما كتبه و نادى به يُعبّر بوضوح شديد عن كثير من جوانب الحيرة الفكرية التي وجد فيها المتميزون من أبناء مصر أنفسهم فيها وهم يفكرون فيما يجب على بلادهم أن تأخذ به لتتحرر من التخلف أولا أو لتتقدم قبل أن تتحرر على نحو ما تقدموا هم قبل أن يتقدم الوطن بالمعايير التي رأوها تعبر عن التقدم ، وبالطبع فقد كانت هناك أفكار عديدة ، و نظريات متنوعة ، واختراعات كثيرة، ووجهات نظر مختلفة، وكان قاسم أمين بحكم تكوينه وذكائه وثقافته واحداً من نخبة النخبة ، ذلك أنه كان قد وصل إلى أعلى درجات السلك القضائي مُستشاراً في محكمة الاستئناف الوطنية، بعد ما كان قد تخرّج في مدرسة الحقوق في سن مُبكرة، وابتعث إلى باريس فأتم بعض الدراسات القانونية في مونبيليه، وعاد وهو في الثانية والعشرين ليرتقي في السلك القضائي من أوله إلى ذروته.

### نشأته

ولد قاسم بك أمين في ١ ديسمبر ١٨٦٣، وهو نفس العام الذي ولد فيه مفكر قانوني بارز توفي أيضاً في سن مُبكرة، وإن لم يكن في سن الخامسة والأربعين مثل قاسم أمين، ذلك المفكر هو أحمد فتحي زغلول الذي يفوق قاسم أمين في جهده الفكري الذي تولى به تعريف القراء العرب على التراث الفكري الأوربي الحديث بما فيه من

أعمال جوستاف لوبون وغيره ، وفي ذلك العام نفسه ولد أيضا اثنان ممّن امتدّ بهما العُمر فتولوا الوزارة ورئاستها وهم حسين رشدي باشا (١٨٦٣ - ١٩٢٨) ومحمد سعيد باشا (١٨٦٣ - ١٩٢٨) ومن الإنصاف أن نُشير إلى أن قاسم بك أمين وأحمد فتحي زغلول باشا كانا يفوقان رئيسي الوزراء من حيث إنجازهما الفكري وقُدْرتهما البيانية.

### كتاباتُه عن المرأة

بدأت علاقة قاسم بك أمين بالحياة الفكرية العامة عندما أَلَف كتابا كاملا رد به على كتاب مؤلف فرنسي هاجم مصر والإسلام، وقد دافع قاسم أمين في كتابه الأول هذا عن مكانة المرأة ووضعيتها في ظلّ الإسلام.

ولم يكن قاسم بك أمين في هذا المنهج ، المنحاز للمجتمع الإسلامي على نحو ما هو عليه ، و الذي بدأ به إسهامه في مجال الفكر بعيداً عن توجُّهات مُفكّري عصره على وجه العموم، لكنه لسبب ما [يختلف مؤرّخو الفكر و الأدب في تحديده] كتب كتابين تاليين ذهب فيهما شوطاً بعيدا من مخالفة الشائع فطالب بحقوق أكثر للمرأة في المجتمع الذي كان يعيشه، وكان توجُّهه هذا واضحا حتى في عنواني الكتابين "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة"، وفي هذين الكتابين هاجم قاسم أمين الحجاب، وهنا نُنبّه إلى ما نبهنا إليه كثيرا من أن لفظ الحجاب في ذلك العصر كان يعني النقاب ، وليس الحجاب الذي نعرفه الآن، كما اعترض على أمور ليس لها علاقة مباشرة بالإسلام، وإنما فرضتها التقاليد والحياة الاجتماعية ، وذلك من قبيل الزواج المبكر، والاقتصار على قدر ضئيل من التعليم.

وكما هو متوقع، فقد اختلطت عبارات قاسم بك أمين في الهجوم على التقاليد بأفكار أخرى كانت مطروحة في الطريق، لثُشكّل في أذهان المُتربّصين به هجوماً على الإسلام، وكما كان متوقعا مع أصحاب الفكر المجدد في كل بيئة وعصر فقد كان من الطبيعي أن يقع قاسم أمين فيما يمكن وصفه بأنه من بعض الخطأ في استنتاجاته التي يؤيّد بها أحكامه، أو في استنباطاته لما يراه صواباً، أو مُلائماً للعصر والمجتمع الإسلامي.

ونظراً لما كان يبدو من حساسية الموضوع الذي تناوله قاسم بك أمين من ناحية، ونظراً لما كان المجتمع المصري يتمتّع به من يقظة في متابعة الكلمة المكتوبة

والمطبوعة، فقد حظيت أفكار قاسم بك أمين وكذلك الأفكار التي هاجمته بأقصى الدرجات المتوقعة من الاهتمام والذيع والانتشار.

### علاقاته السياسية

فيما قبل ذلك ، فقد كانت علاقات قاسم بك أمين السياسية تنتمي به إلى مجموعات النخبة القانونية المُشغلة بالفكر ، وعلى رأسها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، الذي كان هو نفسه مُستشاراً في محكمة الاستئناف قبل قاسم أمين، وسعد زغلول الذي كان أبرز تلاميذ محمد عبده والذي كان هو الآخر مستشاراً في محكمة الاستئناف ، وبهذا الانتماء ، فقد كان قاسم أمين واحداً من سلسلة أو مجموعة فكرية قادت كثيراً من التطورات الاجتماعية والإصلاحية المهمة والجهرية من قبيل إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإنشاء الجامعة المصرية، وإنشاء نادي المدارس العُلّيا ، ثم النادي الأهلي .... وقد كان قاسم بك أمين واحداً من أبرز النشطاء في كل هذه الميادين، وكانت له بصماته الواضحة التي ساعدته في أن يكون شخصية مرموقة في مُجتمع عصره.

### مصطفى كامل و طلعت حرب أبرز من هاجموه

ومن الجدير بالذكر، أن أصدقاء قاسم بك أمين لم ينجروا للدفاع عنه بحماس شديد ولا بحماس مفتعل على نحو ما فعل من خالفوه الرأي وانتقدوه بكتابات قوية وواضحة، وقد كان في مقدمة من هاجموه اثنان من قادة الفكر المصري الحديث الممارسين للسياسة في أعلى ميادينها، وهما الزعيم الوطني مصطفى كامل باشا والاقتصادي الكبير طلعت حرب باشا.

على أن أفكار قاسم بك أمين أصبحت فيما بعد سنوات محلاً لدراسات عديدة ودراسات تاريخية متعدّدة الزاوية، وعلى سبيل المثال قد درس المفكر المصري أحمد بك أمين معركته مع الدوق داركور كما كُتبت عنه كُتُب عديدة من أبرزها كتاب الدكتور محمد عمارة: "قاسم أمين: تحرير المرأة والتمدن الإسلامي" وكتاب الدكتور ماهر حسن فهمي وكتاب الأستاذ احمد خاكي وكتاب الأستاذة وداد سكاكيني وقد حملت هذه الكتب جميعاً اسم قاسم أمين في عناوينها .

## ماذا تبقى من قاسم أمين بعد أن تغيرت المرأة الجديدة؟

الإجابة واضحة جدا وهي أنه بقي من قاسم بك أمين دوره الرائد في تبني فكرة من الأفكار التي كانت كفيلة ببدء الحوار الجاد في قضية عالجه الزمن على نحو فاق تصوّره، لكنه أصبح (على سبيل المثال) هدفاً لمن يُريد إلقاء اللوم على الفكر في أيّ تجاوز ترتكبه أية سيدة في أيّ موضوع ، وذلك بدعوى أنه ما كان لها أن تسلك هذا السلوك لولا دعوة قاسم بك أمين إلى تحرير المرأة، وعلى الرغم من وضوح التجاوز المنطقي في هذه الفكرة فإن تيارات اليمين المُتشدّد في كلّ حضارة لا تقوّت مثل هذه الفرصة في تجسيد خلافاتها أو هجومها.

وهنا أذكر من باب الطرافة أن الشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله كان كثيرا ما يتناول في خطبه الحالات الاجتماعية المرتبطة بفساد خلقي أو تجاوز سلوكي تكون المرأة طرفا فيه وكان مغرما كلما انتهى من نقد حالة من هذه الحالات أن يسترجع ويردّد بتزديد تلك الجملة الجميلة الوقع والمسمع التي تقول: " تركوا سنة القاسم الأمين وساروا خاف قاسم أمين".

ومع أن مكانة قاسم بك أمين الفكرية المُستندة إلى هذه المعركة لا تكفل له، وحدها، موقفاً مُتقدّماً بين مُفكّري عصره فإن ذكر قاسم بك أمين يظلّ حاضراً على الدوام بسبب ما أثير حول دعوته هذه من ضجيج، أكثر من أن يكون هذا بسبب دعوته نفسها.

## رأي الدكتور هيكل باشا في قاسم أمين

خصص الدكتور محمد حسين هيكل فصلا من كتابه تراجم مصرية وغربية للحديث الودود عن قاسم امين وشخصيته و طبيعة فكره و اسهامه في الحياة العامة و الثقافية و سنقطف للقارئ من هذا الفصل بعض الفقرات الكفيلة بتصوير شخصية ذلك العقل الكبير .

## الروح العصبية الحساسة الثائرة

" روح قاسم كانت روح أديب، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التي لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال، بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة



تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيًا وإلهاماً أكثر مما تؤدي إليهما المباحث الجافة منطقاً وجدلاً، وكانت هذه المناظر تذكي شعوره الحساس بجمال الحياة، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع، وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ بنعم الحياة، بل يعبر لغيره عن معاني هذه النعم، وكما يعبر الموسيقي بالنغم والمصور بالنقش والمثّل بالنحن والشاعر بالوزن، كذلك الكاتب الأديب يجد في وصف ما في الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به وما يدعو غيره إليه، وحياة قاسم كانت كلها متجهة إلى هذه الدعوة، وكانت متجهة إليها بقوة أخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الإيمان بها إيماناً صادقاً.

### كان جم الحظ من الحياء

"وليس في ظروف صباه شيء غير عادي إلا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه، وليس في حياته بعد ذلك شيء من المجازفات التي تجذب لأصحابها أنظار الجماهير، بل ظل منذ أتم دراسته إلى أن عالجت منيته سنة ١٩٠٨ وهو في ريعان قوته قاضياً ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف.

### يحترم نفسه وكرامته و يحترم الغير وحرية

لكنه كان مع حياته الجم عيوا يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحرية، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفاً، ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأي، وتلك ظاهرة كثيراً ما تلقاها في ذوي الحياء، فهم مع احترامهم لغيرهم ولحرية ومع مبالغتهم في هذا الاحترام إلى حد هون معه عليهم أحياناً أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية إلى حد يضايقهم، تراهم إذا أراد مرید حبس رأيهم أو محاربتة توترت كل اعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهيون في سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة وذلك سر نجاحهم دائماً، على أنهم لذلك لا يصدرن عن الرأي إلا بعد تميمه وتقليبه على مختلف وجوهه والاختناع بع اقتناعاً يحل منهم مكان الإيمان، وهذا ما عبر عنه قاسم في مقدمة كتابه "تحرير المرأة" حين قال: "هذه الحقيقة التي أنشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها أقلبها وأمتحنها وأحلها، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع

الفكر مني، وصارت تشغلني بورودها وتنبهني إلى مزاياها وتنبهني بالحاجة إليها، فرأيت أن لا مناص من إبرازها من مكان الفكر إلى فضاء الدعوة والذكر.

### كان قاضياً ممتازاً مؤمناً بالتسامح

وهذا الخلق فيه هو الذي جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا إلى خاتمة حياته قاضياً ممتازاً، فهو لم يقض يوماً لئبال حضوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له، كان يرى "أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح الذنب"، وأن "معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر"، وأن "التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله"، وأن "الخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه، والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الإنسان، فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد لإدراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التي وُكِّل إليه تطبيقها كقاض ما تزال تجري على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشة، فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية، وهو العقوبة الوحيدة التي لا سبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضي أو ثابت الجماعة إلى رشدتها ورأت أن تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص أو اخذت بمذهب العفو والتسامح".

### كان يعجل ببذل جميع ما يملك

ولعله كان يصف نفسه أيضاً حين كان يقول عن الشيخ محمد عبده: "كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل في شيء من هذا القبيل، ثم رأيت في الغد منغمساً فيه أكثر مما كان، ذلك لأنه - بعكس ما يراه عموم المصريين في أنفسهم - كان عنده أمل لا يزعزعه شيء في إصلاح أمته، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى القيت في أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت واثمرت كما نبتت وأزهرت واثمرت بذور الفساد فيها، لهذا كان يلقي بملء يديه كل ما جمعه في حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة فكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده.

### المرأة تستطيع أن تلهم الرجل كل المعاني السامية

: "كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي في صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل، وقوله: "الحب إحساس عميق يستولي على النفس كلها ويجعلها محتاجة إلى الاختلاط بنفس أخرى احتياجاً ضرورياً كاحتياج العليل إلى الشمس

والغريق إلى الهواء، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالاً، نظرة في عيون محبوبته تملأ قلبه فرحاً وتجعله يتخيل أنه ماش في طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر في المرتفعات العالية، فوق فوق قريب السماء".

"وهو قد رأى أن المرأة التي تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعاني السامية وأن تفيض على الفنان بالوحي وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التي تحبب إليه الحياة والعمل فيها ليست هي المرأة الجاهلة المحجوبة، لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعاً".

### دور المرأة في النهوض بالجماعة

فأما الفئة التي "تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول، الفئة التي يكون مبدؤها التعليم للتعلم، والتي تحس جمال الحياة في مختلف مظاهره، الفئة التي ترى في المرأة الجميلة المهذبة معواناً على النهوض بالجماعة، هذه الفئة لا تكون إلا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعي، وهذه الفكرة هي الأساس الذي دعا قاسماً للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصرية التي استطلت لجننتها برياسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار في الاستئناف وعين وزيراً للمعارف فحل محله قاسم أمين في رئاسة اللجنة إلى أن عالجته المنية.

وقد بين فكرته عنها في خطاب ألقاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فداناً للجامعة قال فيه: "إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها، عاش أبائنا وعملوا على قدر طاقاتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم، فيحسن بنا أن نقندي بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل.

### العلم وحب الحقيقة

نحن لا يمكننا أن نكتفي الآن بأن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة، بل نطمح في أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة وشوقاً إلى اكتشاف المجهول، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم، نود أن نرى من أبناء مصر - كما نرى في البلاد الأخرى - عالماً يحيط بكل العلم الإنساني واختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الإمام بجميع ما يتعلق

به، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة، وكاتباً ذاع صيته في العالم، وعالمياً يرجع إليه في حل المشكلات ويحتج برأيه أمثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمدبرون لحركة تقدمها، فإذا عدتم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون.

إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فيا يجب أن نفكر في إزالته، وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج في جميع أمورنا، حتى في الأشياء التي يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب.

### وصف الدكتور هيكل لوفاته

واختطف الموت فجأة قاسماً وما يزال في ربيع قوته، مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات في نادي المدارس العليا، مات وهو في ميدان هذا الجهاد الشاق الذي خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق إليهما كلال، فقد وقف الرأي العام في وجهه على إثر نشر كتاب تحرير المرأة، ولم يكن هذا الرأي العام مقصوراً على السواد ولا على الجامدين، بل ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأي واحترامه والحرية وقداستها، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأي قاسم، وبلغ الأمر أن حُرِمَ قصر عابدين عليه، ولم يثبطه شيء من هذا ولم يبال بدم الناس.

مات فجأة في ليل ٢٣ أبريل ١٩٠٨ فآثار خبر وفاته في نفوس الناس جميعاً، أصدقائه وخصومه، رنة حزن وأسى، واجتمع لتشييع رفاتة كل ذوي الرأي في مصر، وكانت جنازته مظهراً صامتاً لإجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله، وغادر هذا العالم تاركاً وراءه ذكراً باقياً هو ذكر الصدق والإخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما في حياته أجراً من جاه أو تشب، فكان أجره عليهما الخلود بعد موته في ضمير الأجيال المتعاقبة.

### الاحتفال بمرور ثلاثين عاماً على وفاته

كان أبرز تكريم حظي به قاسم أمين أنه احتفل في ١٩٣٨ بمرور ثلاثين عاماً على وفاته، وقد نظم الشاعر علي الجارم قصيدة رائعة في هذه.

### قصيدة الشاعر علي الجارم

تتمثل أهمية قصيدة الشاعر علي الجارم في أنه وظف فيها، من دون قصد ولا من أو استعراض - معارفه السيكولوجية والتربوية في تقييم غير مباشر لطبيعة الدور الذي لعبه قاسم أمين في تاريخ وطنه. وبهذا تفوق الشاعر الجارم على الكتب المطولة التي كتبت عن قاسم أمين.

### مشاعر تؤلم النفس

وفي هذه القصيدة نرى كثيرا من التصوير الجيد لمكانة قاسم أمين ودوره الفكري والاجتماعي. وقد بدأ الشاعر علي الجارم قصيدته عن قاسم أمين بداية كلاسيكية تحدث فيها عن المشاعر التي تؤلم النفس من الحزن والألم والوجد والملل، حينما يطلب من الثغر أن يبتسم بالرغم من الاكتئاب والألم اللذين يسيطران على القلب والنفس:

مَلَّ مِنْ وَجْدِهِ وَمِنْ فَرَطِ مَا بِهِ  
وَإِذَا الْقَلْبُ أَظْمَأَتْهُ الْأَمَانِيُّ  
وَأِذَا النَّفْسُ لَمْ تَكُنْ مَنِيْبَتِ الْأُنْ  
وَأَسَدُّ الْأَلَامِ أَنْ تُلْزِمَ النَّعْرَ رَابِتِ  
وَأَرَاقَ الشَّرَابِ مِنْ أَكْوَابِهِ  
فَمَآذَا يُرِيدُهُ مِنْ شَرَابِهِ  
س تَنَاءَى الْقَرِيبُ مِنْ أَسْبَابِهِ  
سَامَاءً وَالْقَلْبُ رَهْنُ اِكْتِنَابِهِ

### تكرار الأسى لفقد الواعدين

ثم يتحدث الشاعر علي الجارم عن ظاهرة تكرار الأسى لفقد الشباب من الواعدين، وما يصحب هذا من فقدان النبوغ والأمل، لا لشيء، إلا لأن الدهر بخل على العقل أن يصل إلى مبتغاه:

كُلَّمَا اخْتَالَ فِي الزَّمَانِ شَبَابُ  
وَالنَّبُوغُ النَّبُوغُ يَمْضِي وَتَمْضِي  
غَرْدٌ مَا يَكَادُ يَصْدَحُ حَتَّى  
وَحَبَابُ إِذَا عَلَا السَّمَاءَ وَأَلَى  
وَسَفِينٌ مَا شَارَفَ الشَّطَّ حَتَّى  
بَحَلَّ الدَّهْرُ أَنْ يُطَوَّلَ لِلْعَفَى  
كُلَّمَا سَارَ خُطْوَةً وَقَفَّ الْمَوْ  
وَابْتَدَأَ الْكَمَالَ فِي عَمَلِ الْعَا  
عَصَفَتْ رِيحُهُ بِلَدُنِ شَبَابِهِ  
كُلُّ آمَالِ قَوْمِهِ فِي رِكَابِهِ  
يُسْكِتُ الدَّهْرُ صَوْتَهُ بِنُعَابِهِ  
فَاسْأَلِ الْمَاءَ هَلْ دَرَى بِحَبَابِهِ  
مَزَّقَ الْيَوْمُ دُسْرَهُ بِعَبَابِهِ  
لِلَّ فَيَجْرِي إِلَى مَدَى أَرَابِهِ  
تُ فَسَدَ الطَّرِيقَ عَنْ طَلَابِهِ  
مِلْ بَدَأَ الشُّكَاةَ مِنْ أَوْصَابِهِ

ضِلَّةً نَكْتُمُ الْمَشِيبَ فَيَبْدُو ضَاحِكاً سَاخِراً خِلَالَ خِضَابِهِ

### الحظ عاجله فلم يمهل

ويبدأ الشاعر علي الجارم في الاقتراب من عبقرية قاسم أمين، فيتساءل عن هذا الحظ الذي عاجله فلم يمهل في إنضاج فكره والدخول إلى عالم الجهاد:

أَيْنَ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُرْشِدَ الدُّنْيَا      وَسَوِّطُ المُنُونِ فِي أَعْقَابِهِ  
أَيُّهَا المَوْتُ أَمْهَلِ الكَاتِبَ المِسْمُ      كَيْنَ يُرْسَلُ أَنْفَاسَهُ فِي كِتَابِهِ  
أَهْ لَوْ يَشْتَرِي الزَّمَانُ قَرِيضِي      بِسِنِينَ تُعَدُّ لِي فِي حِسَابِهِ  
مَا حَيَاتِي وَالْكَوْنُ بَعْدَ جَهَادِي      لَمْ أَزَلْ وَأَقِفْ عَلَى أَبْوَابِهِ  
تَطْمَأ النَّفْسُ فِي حَيَاةٍ هِيَ القُّ      فَرُّ فَتَرَضَى بِنَهْلَةٍ مِنْ سَرَابِهِ

### كيف عبرت صورته الفوتوغرافية عن نفسيته

يتحدث الشاعر علي الجارم عن المفارقة المتمثلة فيما يلحظه المتأمل في الصورة الفوتوغرافية لقاسم أمين والتي يراها الجارم بعين الشاعر وكأنها تعبر عن شباب القلب، بينما الرأس قد أصابه الشيب على نحو ما يرى الشاعر نفسه، وعلى نحو ما نراه من منطلق حديثه بضمير المتكلم عن قاسم أمين:

أَنَا قَلْبِي مِنَ الشَّبَابِ وَجِسْمِي      أَتَخَنَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ بِحِرَابِهِ  
أَمَلٌ هَذِهِ الحَيَاةُ فَهَلْ يَعْزُرُ بِـ      فِي المَوْتُ دُونَ وَشَكِّ طِلَابِهِ  
كُلَّمَا رُمْتُ لِمَحَاةٍ مِنْ سَنَاهِ      هَالَنِي بَعْدَهُ وَطُولُ شِعَابِهِ  
مَا الَّذِي تَبْتَغِي يَدُ الدَّهْرِ مِنِّْي      وَدَمِي لَا يَزَالُ مِلءَ لُعَابِهِ

### ليس للفن نصاب

ويلتفت الشاعر علي الجارم إلى الدهر فيرجوه أن يعطيه الفرصة ليملاً أسمع الناس بما يخطه براعه من فن لا حدود له:

دَعِ يَرَاعِي يَا دَهْرُ يَمَلَأْ سَمْعَ النَّدِّ      يَلِ مِنْ شَدْوِهِ وَعَزْفِ رَبَابِهِ  
كُلُّ شَيْءٍ لَهُ نَصَابٌ سِوَى أَلْفِ      نَّ فَلَاحَدٍ يَنْتَهِي لِنَصَابِهِ

### تعاطف الجارم مع قاسم أمين بسبب رحيله المبكر

ثم ينطلق الشاعر على الجارم في الحديث عن قاسم أمين بعد كل هذه التمهيدات السيكولوجية التي تقترب بالمتلقي من أشد درجات التعاطف مع قاسم أمين الذي عاجله الموت:

عصفت صيحة الردى بخطيب  
سكتة أسكتت نبيح خضم  
سكتة أطفأت منار طريق  
ومضى قاسم وحلف مجداً  
وهو لم يعد صفحة من خطابه  
عقد النوء لجبهه بسحابه  
كم مشيت مصر في ضياء شهابه  
تفرغ النجم راسيات قبابه

### تبدل موقف جيله من قاسم امين

ويوازن الشاعر على الجارم بين موقف المجتمع الذي ينتمي هو نفسه إليه من قاسم أمين، وفكره، وهو موقف بدأ بالاستنكار لكنه تحول مع الزمن إلى التقدير. ويبدع الشاعر على الجارم في تصوير هذه المفارقة في موقفه هو نفسه وموقف أنداده من قاسم أمين ويقدم أبياتاً رائعة الدلالة في تصويرها واتزانها وحكمتها:

قد نكرناه حين قام ينادي  
رب من كنت في الحياة له حر  
وتحديت شمسها فإذا وألى  
لم يفز منك مرة بنناء  
يعرف الورد حينما ينقضي الصي  
كم ندبنا الشباب حين تولى  
وقهمننا معناه يوم احتسابه  
بأشقت الجيوب عند غيابه  
تمنيت لمحاة من ضبابه  
فندرت الأزهار فوق نرابه  
فعرف الورد حينما ينقضي الصي  
كم ندبنا الشباب حين تولى  
وشغفنا بالبدر بعد احتجابه

### سوء حظ قاسم أمين مع شموخه

ويذهب الشاعر على الجارم خطوات واسعة في تصوير ما يمكن وصفه بسوء حظ قاسم أمين على الرغم مما كان يتمتع به من شموخ:

كذب الله أن يعيش غريباً  
لا ترى فوق قمة الطود إلا  
كل ذات الجناح طير ولكن  
كم رأينا في الناس من يبهر العي  
كل ذي دعوة إلى الحق نابه  
بطلاً لا يهاب هول صغابه  
عرف الجو نسرته من غرابه  
من وما فيه غير حسن ثبابه

يَمْلَأُ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ رِيَاءً وَعُيُوبُ الزَّمَانِ مِلءٌ عِيَابُهُ

### معاناته من الجمهور

ويعود الشاعر على الجارم إلى تحليل موقف الناس من قاسم أمين حين واجهوه بالنقد والاعتراض، بل بالسب في بعض الأحيان فيقول:

نَقَدَ النَّاسَ قَاسِمًا فَرَأَوْهُ أَصْبَرَ النَّاسِ فِي تَجَرُّعِ صَابِيَهُ  
حُجَّةُ الْجَاهِلِ الْمِرَاءِ فَإِنْ شَاءَ ءَ سُمُّوْا أَمَدَهَا بِسَبَابِيَهُ  
قَدْ يُعْشَى الْوُجْدَانَ بَاصِرَةَ الْعَمَى قَلْبٌ فَيُعْمِيهِ عَن طَرِيقِ صَوَابِيَهُ

### جسارة قاسم أمين في التصدي لسطوة القديم

وبعد كل هذا يبدأ الشاعر على الجارم في مديح صنع قاسم أمين والإشادة بشجاعته وصولاته وجرأته وتحمله مرارة العذاب، وجهاده من أجل تثقيف الشعب بلا تدليل وإصلاح المجتمع رغم الصعوبات، ومواجهته سطوة الجهل بجهاد عفيف، على الرغم من أن العصر كان لا يزال عصرا للقديم وسطوته:

صَالَ بِالرَّأْيِ قَاسِمٌ لَا يُبَالِيهِ كَيْمٌ جَرَى لَا يَرْهَبُ السَّيْفَ إِنْ سُلِّ  
وَالشَّجَاعُ الَّذِي يُجَاهِرُ بِالْحَدِّ كَيْفَ يَهْدِي النَّصِيحُ إِنْ رِيحَ يَوْمًا  
وَطَرِيقُ الْإِصْلَاحِ فِي كُلِّ شَعْبٍ يَعْشَقُ الشَّعْبُ مِنْ يُدَلِّهُ زُو  
فَمَتَّ لِلْجَهْلِ تَقْلَمُ الظُّفْرَ مِنْهُ فِي زَمَانٍ كَانَ الْقَدِيمُ بِهِ قُدُ  
وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ غَيْرَ أَبِيهِ وَنَكَسَ يَخَافُ مَسَّ قِرَابِيهِ  
قٌ وَلَوْ كَانَ فِيهِ مُرٌّ عَذَابِيَهُ مِنْ قَلْبِي مَنْ يُحِبُّ أَوْ إِغْضَابِيَهُ  
عَسِرُ الْمُرْتَقَى عَلَى مُجْتَابِيَهُ رَأً بِمَدْقٍ مِنْ سُخْفِهِ وَكِدَابِيَهُ  
وَتَقْضُ الْحَدَادَ مِنْ أَنْبَابِيَهُ سَأَ يُدَادُ الْجَدِيدُ عَن مَحْرَابِيَهُ

### الجارم يلقبه بثلاثة ألقاب : نصير الإمام و نصير النساء وفتي الكرد

ثم يمنح الشاعر على الجارم قاسم أمين ثلاثة ألقاب جميلة تبدأ بلقب جميل يناديه به ، وهو نصير النساء، وبفيض في وصف ما جعله يستحق هذا اللقب عن جدارة:

يَأْنَصِرُ النِّسَاءَ وَالذِّينَ سَمَحُ قَدْ حَشَيْنَا عَلَى الْحَمَائِمِ فِي الدَّوْ  
لَوْ وَعَيْنَا السَّرِيَّ مِنْ آدَابِيَهُ حَ أَظْفِيرَ بَازِرِهِ أَوْ عُقَابِيَهُ  
سَهْلٍ فَطَهَّرَ أَكْنَافَهُ مِنْ ذُنَابِيَهُ إِنْ أَرَدْتَ الظُّبَاءَ تَمْرُخُ فِي الْ



كَمْ ضِرَاءٍ وَسَطَ الْمَدَائِنِ أَنْكِي      مِنْ ضِرَاءِ الضَّرْغَامِ فِي وَسَطِ غَابِيهِ  
 وَشِبَاكِ مِنَ الْجُرَائِمِ وَالْخَنْلِ      حَوَاهَا شَيْطَانُهُمْ فِي جِرَابِيهِ  
 وَإِذَا مَا الْحَيَاءُ لَمْ يَسْتُرِ الْحُسْنَ      نَ فَمَادَا يُفِيدُهُ مِأَنَ نِقَابِيهِ

### فضل قاسم أمين في تمكين المرأة من العلم

ثم ينتقل الشاعر على الجارم نقلة ذكية يصور بها فضل قاسم أمين في تمكين المرأة من العلم، وأثر دعوته الجريئة في مستقبل بنات ذلك الجيل الحاضر، ثم هو يصل في تدليل قاسم أمين إلى تسميته بفتى الكرد ونصير الإمام يقصد الإمام الشيخ محمد عبده:

قُمْتَ تَدْعُو الْبَنَاتِ لِلْعِلْمِ فَاَنْظُرْ      كَيْفَ حَلَقْنَ فَوْقَ شَمِّ هَضَابِيهِ  
 وَرَهَا النَّيْلُ بَابِنَةَ النَّيْلِ فَاخْتَرَا      لَ يَجْرُ الدِّيُولُ مِنْ عَجَابِيهِ  
 وَغَدَا النَّبِيْتُ جَنَّةً بَالْتَمِي فِيهِ      هِ خَصِيْبًا بِالْأَنْسِ بَعْدَ بِيَابِيهِ  
 يَا فَتَى الْكُرْدِ كَمْ بَرَزْتَ رَجَالًا      مِنْ صَمِيمِ الْحَمَى وَمِنْ أَعْرَابِيهِ  
 نَسَبُ الْمَرْءِ مَا يُعَدُّ مِنَ الْأَعْرَابِ      مَالٍ لَا مَا يُعَدُّ مِنْ أَنْسَابِيهِ  
 كَمْ سُؤَالَي بَعَثْتُ إِثْرَ سُؤَالَي      أَيْقَظَ النَّائِمِينَ رَجْعُ جَوَابِيهِ  
 كُنْتُ فِي الْحَقِّ لِلْإِمَامِ نَصِيْبًا رَأً      وَالْوَفِيِّ الصَّفِيِّ مِنْ أَصْحَابِيهِ  
 نَمَّ هَنِيْبًا فَمِصْرُ نَالَتْ دُرَا الْأَعْرَابِ      مَجْدٍ وَقَارَتْ بِمَحْضِهِ وَأَبَابِيهِ  
 مِنْكَ عَزْمُ الدَّاعِي وَفَضْلُ الْمُجَلِّي      وَمِنْ اللَّهِ مَا تَرَى مِنْ ثَوَابِيهِ

### ذريته

كان قاسم بك امين قد أنجب ذرية من البنات، ولم يُنجب ذكورا، وقد تزوج أحد أسباطه وهو المسمى باسمه "قاسم أمين" من السيدة روز اليوسف، وتوفيت هذه السيدة الرائدة وهي على ذمته، فكان من ورثتها مع ابنها الأستاذ احسان عبد القدوس وابنتها السيدة أمال زكي طليمات.

### وفاته

توفي قاسم أمين في ٢٢ ابريل ١٩٠٨ في نفس العام الذي توفي فيه الزعيم مصطفى كامل باشا، وإن كان مصطفى كامل باشا قد سبقه إلى الوفاة بشهرين (١٠ فبراير ١٩٠٨) عن سن أصغر من سن قاسم بك أمين إذ لم يصل عمر مصطفى كامل باشا إلى الرابعة والثلاثين.. و فيما بعد وفاته أوحى مذكرات سعد زغلول بأنه استنتج أن قاسم بك أمين مات منتحرا.

## المحتويات

٥	هذا الكتاب
١١	الباب الأول : الأستاذان
١١	الفصل الأول السيد جمال الدين الأفغاني
١١	العلامة الذي أيقظ الفكر الشرقي
١١	تفكيرنا في تاريخنا، وتأريخنا لتفكيرنا
١٢	معنى اتهام السلفيين له بالماسونية
١٢	أين هو أثر الماسونية في الإسلام السياسي
١٣	السبب الحقيقي في عداوة جماعات سلفية للأفغاني
١٣	حقيقة موقف الأوربيين من السيد جمال الدين الأفغاني
١٤	حقيقة موقف المستعربين و العملاء من الأفغاني
١٤	أثر الدكتور محمد حسين في التنفير من الأفغاني
١٤	عقل كبير قادر على التعبير المذهل وعلى الصياغة المثلى
١٥	لم يكن سهلا على الأفغاني أن يتوافق كثيرا
١٥	خلافاته المتتالية مع الملوك
١٦	اختلاف الأفغاني مع تلميذه محمد عبده
١٦	مفكر عالمي لولا أن المسلمين لا يُنصفون
١٦	لم يضع السلطة نصب عينيه
١٧	عاشت أفكاره حتى الآن رغم ملاحقته
١٧	هل كان بلغة السلطة نصف ثائر؟
١٧	أستاذية العقل الخصب المثمر
١٧	القدرة على التعلم
١٨	القدرة على خلق الدوامات المتجددة
١٨	إعجاب جماعة المسلمين به
١٨	فضل الدكتورين محمد عمارة وحسن حنفي
١٩	نشأته
١٩	الانتقال إلى قزوين و طهران و النجف
١٩	السفر للهند للتعلم
١٩	العودة إلى كابول
١٩	اللجوء إلى الهند ومنها إلى مصر
٢٠	السفر إلى الآستانة

٢٠.....	العودة إلى مصر
٢٠.....	الآفاق التي امتدت إليها أستاذيته
٢١.....	وصف د. أحمد عبد الرحيم مصطفى لعلاقة محمد عبده به
٢١.....	التطور الذي أصاب فكر محمد عبده
٢١.....	موقف محمد عبده من سيرته التي كتبها
٢١.....	الصحفيون الذين ارتبطوا بأستاذيته
٢٢.....	بناؤه على جهد رفاعة الطهطاوي
٢٢.....	الحزب الوطني الحر (السري) وبعث الثورة المصرية
٢٢.....	اللجوء إلى الاتصال بالجماهير
٢٢.....	وقوعه في حب التدخين
٢٣.....	معاناته في عهد الخديو إسماعيل
٢٣.....	زيارة صديقه بلنت في لندن
٢٣.....	رحلة موسكو
٢٣.....	نشاطه و تألقه في باريس
٢٤.....	مناظرة رينان
٢٤.....	العودة إلى الجزيرة العربية وإيران
٢٤.....	السفر إلى ألمانيا والاتفاق مع الشاه
٢٤.....	قيمه الصحفية
٢٥.....	تطوير الأساليب العربية في الكتابة والخطابة
٢٥.....	آثاره المطبوعة
٢٥.....	وفاته
٢٦.....	<b>الفصل الثاني : الشيخ محمد عبده</b>
٢٦.....	<b>زيارة سريعة لفكر الأستاذ الإمام</b>
٢٦.....	تكوين شخصية المسلم
٢٦.....	عرضه الفلسفي لأصول الإسلام
٢٧.....	قدرة الإسلام على احتواء أبنائه
٢٧.....	الاعتبار بسنن الله في الخلق
٢٧.....	اعتباره الوعي بالتاريخ أصلا من أصول الإسلام
٢٧.....	المقارنة بين المسيحيين والمسلمين من حيث عنايتهم بلغة كتابهم
٢٨.....	السلطة الدينية والعلاقات الخارجية في فكر محمد عبده
٢٨.....	جوهر الإسلام هو هدم ما يسمى بالسلطة الدينية
٢٨.....	الإسلام ذو قوة لإقامة حدوده
٢٩.....	نفي فكرة الشيوقراطية عن الخلفاء
٢٩.....	حماية الدعوة لمنع الفتنة

٢٩.....	قادة المسلمين يجلّون العباد المتفرغين للعبادة
٣٠.....	الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة
٣٠.....	حرص الإسلام علي حقوق الحواس
٣٠.....	الوصف الذكي الذي وصف به قاسم أمين عبقرية إمامته
٣١.....	جوهر إصلاحه أن الدين هو أساس الرابطة الاجتماعية
٣١.....	وظائفه قبل الثورة العربية
٣١.....	عمله في الوقائع المصرية
٣٢.....	موقفه في الثورة العربية
٣٢.....	محاكمته
٣٣.....	في بيروت
٣٣.....	عودته إلى مصر وعمله مستشارا بالاستئناف
٣٣.....	مقارنته بأستاذه الافغاني
٣٣.....	علاقته بمشايخ الأزهر منذ تخرجه
٣٤.....	استقالة الشيخ حسونة النواوي الأولى من المنصبين
٣٤.....	كان يظن ان الخديو سيعينه خلفا للشيخ حسونة
٣٤.....	تعيينه مفتيا فقط واستمراره مع أربعة شيوخ
٣٥.....	شيوخ الأزهر الذين عمل معهم وهو مفت
٣٥.....	اختياره عضوا دائما في مجلس شورى القوانين
٣٦.....	قيمه كفقيه و كأستاذ للفقهاء
٣٦.....	سلطته المتعدية لحدود الأوطان
٣٧.....	هل لا تزال أفكار الشيخ محمد عبده ملهمة ؟
٣٧.....	بعدالله أصبح مفتيا لغير المصريين ولغير المسلمين
٣٧.....	شجاعته الفقهية والفكرية في الاستعانة بلورد كرومر
٣٨.....	فكرة حق الأمة على الحاكم
٣٨.....	اتصاله بالإنجليز لتقديم صورة مختلفة عن تصويرهم للثورة العربية
٣٨.....	إدراكه لأثر قيم الإسلام في رفض الأمة الاستسلام لغيرها
٣٩.....	كيف استفادت ثورة ١٩١٩ من أفكاره
٣٩.....	أروع فقرة أبدعها مفكر في تلخيص تاريخنا الحديث
٣٩.....	النظرة ذات الصبغة البيولوجية
٤٠.....	وصفه لمحمد علي : لم يستطع أن يُحيي و استطاع أن يُميت
٤٠.....	أفقد المواطنين الشجاعة والاستقلال
٤١.....	وظف العلم و البعثات لمصلحة وقتية فقط
٤١.....	لم يشرك المواطنين في الحكم
٤١.....	علم المصريين الهرب من الجندية وكره الجيش
٤١.....	سياسة محمد علي جعلت المصريين لا يقاومون الإنجليز

٤٢.....	<b>الباب الثاني : وزيران مجددان</b>
٤٢.....	<b>الفصل الثالث : أحمد حشمت باشا</b>
٤٢.....	<b>أول وزراء المعارف اهتماما بالتعليم المتخصص</b>
٤٢.....	نشأته
٤٣.....	تكوينه العلمي و وظائفه
٤٣.....	تراثه النظري في التربية
٤٣.....	استكمال جهود سعد زغلول في وزارة المعارف
٤٣.....	إسهاماته التربوية الحضارية
٤٣.....	هو من أقنع أحمد زكي باشا بوضع علامات الترفيم العربية
٤٤.....	ترجمة أفضل الكتب المدرسية المتاحة
٤٤.....	طبع ترجمة البؤساء على نفقته
٤٤.....	إنشاء نواة كليتي التجارة والزراعة
٤٤.....	اهتمامه بدار الكتب وتحقيق التراث
٤٥.....	مسئولية المحليات
٤٥.....	مناصبه الوزارية
٤٦.....	نائباً لرئيس لجنة دستور ١٩٢٣
٤٦.....	قصيدة حافظ إبراهيم في رثائه
٤٦.....	مشاعر حافظ إبراهيم تجاه فقده
٤٧.....	وصف شاعر النيل لمناقب حشمت باشا
٤٧.....	فخر الشاعر بأنه من صنائع حشمت باشا
٤٧.....	ضيق حافظ بالحياة بعد فقدانه للأصدقاء
٤٨.....	فقدانه دعم حشمت باشا
٤٨.....	ألم الفقد و الفراق
٤٩.....	الختام المسبوك
٤٩.....	وفاته
٥٠.....	<b>الفصل الرابع : محمد قدري باشا</b>
٥٠.....	<b>أول من قنن الشريعة الإسلامية و وضع الدستور</b>
٥٠.....	نشأته وتكوينه
٥٠.....	هوايته لدراسة الشريعة
٥١.....	سكرتيراً للوالي علي الشام
٥١.....	العمل بتدريس اللغات والتأليف فيها
٥١.....	أثر رفاعة الطهطاوي وعقلية الباحث الجامعي
٥٢.....	توج جهوده في الترجمة بقانون نابليون

٥٢.....	ترجمة قوانين المحاكم المختلطة
٥٢.....	مستشاراً في المحكمة المختلطة
٥٢.....	توليه وزارتي الحقانية والمعارف
٥٣.....	قوانين للمحاكم الأهلية
٥٣.....	بحوثه
٥٣.....	أسس نظام العمل في المحاكم المصرية
٥٣.....	توجهاته الدستورية
٥٤.....	مواهبه الفنية
٥٤.....	موسوعته ذات الكتب الثلاثة
٥٥.....	آثاره الأخرى
٥٥.....	وله من المخطوطات
٥٥.....	وفاته
٥٥.....	تكريمه
٥٥.....	نشر أعماله
٥٦.....	<b>الفصل الخامس : عاطف بركات باشا</b>
٥٦.....	<b>أكفاً أساتذة الفكر العربي في العصر الحديث</b>
٥٦.....	نسيج وحده
٥٦.....	استوفى حظه من الدنيا في عام وفاته
٥٦.....	الأجيال و الاستاذية
٥٧.....	الأستاذ المفضل والأثير للأستاذ أحمد أمين
٥٨.....	نجاحه الساحق في تكوين شخصيات قادرة على قيادة الفكر
٥٨.....	عُني عاطف بركات باشا بملكة التفكير في تلاميذه
٥٩.....	مقارنته بثلاثة من رواد العلم
٥٩.....	المعلومات الخاطئة ضمت عدداً من أعلام الفكر لخريجي المدرسة
٦٠.....	كيف فقدت مدرسة القضاء الشرعي مبرر وجودها
٦٠.....	نجاحه البارز في تجسيد الفكرة
٦١.....	المدارس العليا المرتبطة بالمهن
٦٣.....	استنساخ تجربة كلية دار العلوم
٦٤.....	خلافه مع البيروقراطية المصرية التقليدية
٦٥.....	نشأته وتعليمه
٦٥.....	الأستاذ الذي لم يعمل بالتدريس وبدأ حياته موجهها
٦٦.....	مشاركاته السياسية في ثورة ١٩١٩ ونفيه إلى سيشل
٦٦.....	مقال الأستاذ أحمد أمين الشهير في التعريف به
٦٧.....	يقارنه بحسن عاصم باشا

٦٧.....	حبه للنظام وتمسكه بالعدل
٦٧.....	معارضته للخديو عباس حلمي
٦٨.....	معارضته لسعد زغلول باشا
٦٨.....	معارضته لأحمد حشمت باشا
٦٨.....	كان نظيف العقل، لا يقبل إلا الفكرة الواضحة
٦٨.....	محبوبًا من تلاميذه و محترمًا من الجميع
٦٩.....	كان يقتدى بطريقة «سقراط»
٦٩.....	أخلاقه صالحة لإصلاح مدرسة عالية
٦٩.....	نواله البكوية والباشوية
٧٠.....	قصيدة الشاعر على الجارم في رثاء عاطف بركات
٧٠.....	بكاء العين على العقل الجليل
٧١.....	حكمة الحياة والموت
٧١.....	ما افتقدته أرض الكنانة بوفاة عاطف بركات
٧٢.....	وهب الحياة لقومه على الرغم من نصح الطبيب
٧٢.....	وصف الجارم لجنازة عاطف بركات
٧٤.....	ينظر إلى المحيط نظرة الصقر
٧٤.....	من كان سعد خاله
٧٤.....	يلقبه بمحيي القضاء
٧٥.....	أثر عاطف بركات في تلاميذه
٧٥.....	من أين يأتي بديل لعاطف بركات؟
٧٥.....	يا من كنت تطلب نور اليقين
٧٦.....	دم الجفون وحرقة الأكباد
٧٦.....	وفاته
٧٧.....	<b>الفصل السادس : عمر لطفي بك</b>
٧٧.....	<b>الذي أسس ٤ كيانات عشقها المصريون أشهرها النادي الأهلي</b>
٧٧.....	تكوينه العلمي
٧٨.....	مقارنته بطلعت حرب باشا
٧٨.....	تفوقه القانوني المبكر
٧٨.....	دوره البارز في الحياة العامة و السياسية
٧٩.....	فكرة التعاون المنزلي
٧٩.....	فكرة العمل النقابي
٧٩.....	فكرة نادي المدارس العليا
٨٠.....	فكرة النادي الأهلي
٨١.....	عبد الخالق ثروت يسجل فضل عمر لطفي

٨١	ثروت باشا يشهد بأن تصميمه هو الذي حقق النجاح
٨٢	شهادة الأستاذ فكري أباطة
٨٢	قيمه الفكرية
٨٣	أول من تناول حقوق المرأة في الإسلام
٨٣	آثاره
٨٣	قصيدة أحمد شوقي في رثاء عمر لطفي
٨٤	ينظم صفاته الحميدة كأنها حبات اللؤلؤ
٨٤	تعلم الرثاء
٨٥	وفاته المبكرة
٨٦	<b>الفصل السابع أحمد فتحي زغلول</b>
٨٦	<b>المفكر الذي أفقدته دنشواي كل الثناء والمجد</b>
٨٦	دنشواي أفقدته كل مجده
٨٧	تصحيح الشاعر محمود غنيم للرواية الشائعة عن أبيات لأمير الشعراء
٨٧	الموقف الشعبي المتطهر
٨٧	فضله في تعريف العرب بالفكر الأوروبي الحديث
٨٨	نشأته
٨٨	الثورة العربية
٨٨	بعثته
٨٩	حفل تكريمه
٨٩	آثاره
٨٩	ترجمته لعيون الفكر القانوني العالمي
٨٩	مؤلفاته
٩٠	من أهم هذه المقالات والخطب
٩٠	مترجمات لم تنشر
٩١	<b>الفصل الثامن : قاسم أمين</b>
٩١	<b>الذي لم يحطم الباستيل لكنه أصبح رمزا للحرية</b>
٩١	نشأته
٩٢	كتابات عن المرأة
٩٣	علاقاته السياسية
٩٣	مصطفى كامل و طلعت حرب أبرز من هاجموه
٩٤	ماذا تبقى من قاسم أمين بعد أن تغيرت المرأة الجديدة ؟
٩٤	رأي الدكتور هيكل باشا في قاسم أمين
٩٤	الروح العصبية الحساسة الثائرة



- ٩٥..... كان جم الحظ من الحياء
- ٩٥..... يحترم نفسه وكرامته و يحترم الغير وحرية
- ٩٦..... كان قاضيا ممتازاً مؤمناً بالتسامح
- ٩٦..... كان يعجل ببذل جميع ما يملك
- ٩٦..... المرأة تستطيع أن تلهم الرجل كل المعاني السامية
- ٩٧..... دور المرأة في النهوض بالجماعة
- ٩٧..... العلم و حب الحقيقة
- ٩٨..... وصف الدكتور هيكل لوفاته
- ٩٨..... الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على وفاته
- ٩٩..... قصيدة الشاعر علي الجارم
- ٩٩..... مشاعر تؤلم النفس
- ٩٩..... تكرار الأسي لفقد الواعدين
- ١٠٠..... الحظ عاجله فلم يمهل
- ١٠٠..... كيف عبرت صورته الفوتوغرافية عن نفسه
- ١٠٠..... ليس للفن نصاب
- ١٠١..... تعاطف الجارم مع قاسم أمين بسبب رحيله المبكر
- ١٠١..... تبدل موقف جيله من قاسم امين
- ١٠١..... سوء حظ قاسم أمين مع شموخه
- ١٠٢..... معاناته من الجمهور
- ١٠٢..... جسارة قاسم أمين في التصدي لسطوة القديم
- ١٠٢..... الجارم يلقبه بثلاثة ألقاب : نصير الإمام و نصير النساء وفتي الكرد
- ١٠٣..... فضل قاسم أمين في تمكين المرأة من العلم
- ١٠٣..... ذريته
- ١٠٣..... وفاته

**Prof. Mohamed El Gawady**

ISIN : 0000 0001 2122 604X

**Ambitious Mind Authority**

1850-1924

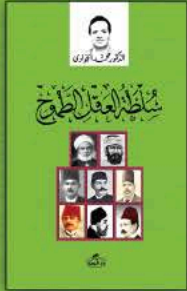






الدكتور محمد الجوادى

يرنو هذا الكتاب إلى رسم صورة تقريبية لملامح الحياة العقلية المصرية حين بدأت اتصالها بالحضارة الحديثة وحين أخذت إرهاصات هذا الاستقلال تتضح من خلال التعليم والرحلة والتعامل والمضاهاة والتقليد، وحين مضى هذا الاتصال يثير في الأذهان الأسئلة المعرفية الستة العظيمة التي تتحدث عما ينقصنا من تعلم ، وعما يميزنا من هوية ، وعما يحمينا من قوة ، وعما ينتظرنا من مستقبل ، وعما يليق بنا من نهضة ، وعما يجب علينا من جهد . يرسم هذا الكتاب الملامح الفكرية والبنية التعليمية التي تمتع بها ثمانية من أقطاب العقل مضيئا المناطق المتعددة من الفهم والإحاطة التي كونت رؤاهم وصاغت أفكارهم وقادت خطواتهم ودعواتهم على أرض الواقع الفكري والتعليمي والحضاري الاقتصادي والاجتماعي والرياضي.



- السيد جمال الدين الأفغاني
- الشيخ محمد عبده
- أحمد حشمت باشا
- محمد قدرى باشا
- عاطف بركات باشا
- عمر لطفي بك
- أحمد فتحي زغلول باشا
- قاسم امين بك



9 786257 682107